دروس (٧ / ٣٩-٤٠)

سورة رقم ١

تفسير سورة الفاتحة

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

الحمد لله ذي المحامد كلِّها، وذي الخير كله، وذي الفضائل كلها.

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنىٰ، وله النُّعوت العُلا.

الحمد لله الذي له كل المحامد علىٰ وجه الكمال.

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ووفقنا للخير الذي نحن فيه من الالتزام بكتابه وبسنّة رسوله ﷺ ما استطعنا.

الحمد لله الذي يُحمد علىٰ الخيرات، وهو المحمود علىٰ كل حال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، ومَن اهتدىٰ بهداهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من المنتفعين بالقرآن، المتدبرين له، الذين يُسِّر عليهم قراءةً وتلاوةً، وحفظًا وتدبرًا وفهمًا، وأسأله جل وعلا أن يُفهّمنا منه ما به تَقَر أعيننا وتنشرح نفوسنا.

إن أول القرآن؛ بل والقرآن العظيم فاتحةُ الكتاب، وأول ما يُفسَّر من القرآن هذه السورة العظيمة، فتفسيرها مع كونه محتاجًا إليه لفهم سبع آيات من القرآن، فهو محتاجٌ إليه من جهة أنّ الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام العملية مما يَعظُم أجرُها لمن تدبر كتاب الله جل وعلا الذي يتلوه فيها، وقال ما يقول في صلاته عن علم واعتقاد وفهم.

فاتحة الكتاب سماها النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما ثبت في الصحيح سماها لأبي أنها القرآن العظيم والسبه المثاني، وقال ﷺ لأبيّ: « فاتحة الكتاب هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ ».

ففاتحة الكتاب هي السبه المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفاتحة الكتاب فتح بها القرآن، وتسمىٰ أم القرآن، وأم الكتاب ؛ وذلك لأن هذا الكتاب يُفتتَح بها، ولأن الصلاة تُفتتح بها، كما ذكر هذا التعليل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «صحيحه».

وكذلك؛ لأن معاني القرآن جميعًا ترجع إلىٰ ما ذُكر في هٰذه السورة العظيمة، فهي أم القرآن باعتبار أن معاني القرآن ترجع إلىٰ المعاني التي في هٰذه السورة، وهٰذا يظهر لك واضحًا جليًّا عند الشروع أو بعد

الانتهاء من تفسيرها.

هٰذه السورة العظيمة ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «قالَ اللهُ تَعالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ، ويعني بالصلاة فاتحة الكتاب.

فهي بين العبد وبين ربّه في صلاته، وهذا ينبئ عن عِظَم شأنها في الصلاة.

ثم قال النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ قالَ اللهُ تَعالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ قالَ اللهُ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ قالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قالَ الله جل جلاله: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

وهذا الذي وُصف بهذا الحديث لا شك أنه متفرِّع عن فهم هٰذه السورة وفهم معانيها، وعن تدبر آياتها، فليس سواء عالِمٌ بها وجهول، لا يستوي من يتلو هذه الآيات من سورة الفاتحة وهو يعقل معانيها، ويفهم دلالاتها، مع مَن إنما يرددها بلسانه وقلبُه إما مشغول عنها، وإما جاهل بها.

وما أعظم أن تكون حين الصلاة مناديًا لله جل وعلا بهذه السورة العظيمة.

هذه السورة هي السبع المثاني والقرآن العظيم، فالسبه المثاني فسرت بأنها الفاتحة كما ذكرها النبي ﷺ، وكذلك فسر القرآن العظيم مع السبع المثاني معا بأنها فاتحة الكتاب؛ كما مر معنا في حديث أبيٍّ الذي رواه البخاري وغيره.

هذه السورة مبتدَأة بالبسملة، ومما أمر الله جل وعلا به القارئ للقرآن أن يبدأ قراءته به: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فكان لِزامًا أن يفهم وأن يعلم معنىٰ الاستعاذة بالله جل وعلا من الشيطان الرجيم، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل].

يبتدئ التالي للقرآن – إما في الصلاة، وإما في خارج الصلاة – التلاوة بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وإن زاد تنزيهًا لله وتعظيمًا بقوله: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فهذا قد جاءت به السنة، وكلٌّ وارد، وكما قال الشاطِبي:

.....وإن تَـزِدْ لِرَبِّـكَ تَنْزِيهًـا فلسـتَ مُجَهَّـلَا

يعني إذا زِدتَ في الاستعاذة بأنواع الصفات فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أو: أعوذ بالله الحي القيوم من الشيطان الرجيم، فلستَ مجهلًا، فالكل سائغ، والأحسن الاتباع.

وقد جاء في هذا صفتان:

الأولىٰ: « أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ »، وهي التي جاء بها القرآن.

الثانية: ما ثبتت بها السنّة: « أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ ».

وهَمْز الشيطان الْمُوتَة، وهي نوع مرض يحصل به المرء الخمنس، ونفث الشيطان الشِّعر الـذي يُـراد به الباطل، ونفخ الشيطان الكِبر ؛ وهذا مما ثبت في السنّة.

هنا يقول التَّالي: (أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ)، ومعنىٰ هذا القول: أعتصم وألتجئ وأتحرّز بالله معبـودي الحق الذي لا أعبد سواه، ولا أفوّض أمري إلا إليه ؛ من شر الشيطان الذي رُجم ورُمي وأُبعد وطُـرد مـن رحمة الله جل وعلا، من شياطين الإنس ، ومن شـياطين الجـن؛ أن يصـيبوني بـأذًىٰ في نفسـي، أو بـأذىٰ ونقص في ديني، أو أن يصرفوني عن الالتزام بأمر ربي، أو أن يحملوني علىٰ الإقبال علىٰ ما لا يحبّ إلهي ومولاي الذي أعبده.

ذلك أن معنىٰ (أَعُوذُ): ألتجئ وأعتصم وأتحرّز، ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ ﴾ [الفلق]، ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ [الناس]، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨ ﴾ [المؤمنون].

كل هٰذا معناه: ألتجئ وأعتصم وأتحرّز من شر الشيذان أن يصيبني علىٰ النحو الذي وصفت.

إذن فمعنىٰ العياذ: الإلتجاء والاعتصام والتحرز لله، فتلحظ أنك عندما تقول: أعوذ، معنىٰ ذلك أنـك تخلي القلب في كفّ الشر عنك من كل ما سوىٰ الله جل وعلا، وتعلم أن الذي يكف شر شـياطين الجـن والإنس عنك إنما هو الله جل وعلا.

ومناسبتها للتلاوة أن التالي حين يتلـو يحضـره الشـيطان ليصـرفه عـن تـدبر الآي ؛ وليحملـه علـىٰ الوسوسة، وليجعله غير ملتزم بما تلا، وكل هذا وأمثاله من شرور الشيطان التي يستعاذ بـالله جـل وعـلا منها.

(بِٱللَّهِ): يعني بالمعبود الحق، الذي ليس ثم معبود حق إلا هو جـل وعـلا.. بمعبـودي الـذي أعبـده، وأتوجه إليه في كل عباداتي. وفي ضمن ذلك معاني الربوبية له جل وعلا، الذي أفوض أمري إليه، وأتوكـل

عليه، وأعتصم به، وأفوّض أمري إليه، وأطلب الخير منه، وأطلب البعد عن الشر منه، وهذا هو الله جل وعلا الذي بيده ملكوت كل شيء.

فالمستعاذ به هو الله جل وعلا وحده، والاستعاذة عبادة من العبادات، ولكنها عبادة قلبية، لا تنزل إلا بالله جل وعلا، فلا يجوز الاستعاذة بغير الله جل وعلا، ومن استعاذ بغير الله جل وعلا فقد أشرك ؛ لأن الله جل وعلا هو الذي يحمي من الشر، وهو الذي يفيض الخير، ويمنع الشر، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر:٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال جل وعلا في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس].

فالذي يمنع الشر عن العبد هو الله جل وعلا، والذي يُفيض الخير علىٰ العبد هو الله جل وعلا.

وأعظم أهل الشر شرًّا علىٰ العبد المؤمن الشيطانُ الرجيم، الذي هو إبليس وجنوده من الجن ومن الإنس؛ لأن أعلىٰ وأغلىٰ ما عند العبد المؤمن في هٰذه الحياة أن يستقيم علىٰ الإسلام، ولا يمكن أن يستقيم علىٰ الإسلام إلا أن يكون متحصنًا متحرزًا من الشرور التي يصيبه بها ويعتدي عليه بها الشيطان. فهنا يستعيذ المرء بالله من الشيطان الرجيم.

قال أهل العلم: إن (ٱلشَّيْطَٰنِ) مأخوذ من الشطن؛ وهو البعد؛ لأن الشيطان تُطلَق في اللغة علىٰ البعيد عن الخير، أو البعيد عما عليه أجناسه، فيقال له: شيطان، ولهذا قيل لإبليس: إنه شيطان، وإذا أطلق لفظ الشيطان فإنه يدخل فيه دخولًا أوّليًّا إبليسُ، والشيطان يشمل شيطان الإنس وشيطان الجن؛ وذلك لأن شيطان الإنس قد بعُد عن الخير، وشيطان الجن كذلك بعيد عن الخير، ومما يدل له – كما قال المفسرون – قول الشاعر:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ	ثُمَّ يُلْقَىٰ فِي السِّجْنِ وَالأَغْلالِ

أيما شاطن: أي أيما بعيد، فالشطْن البعد.

ويقال أيضًا لبعض الحيوانات: إنها شيطان، وذلك باعتبار البعد ؛ إما عن أجناسها، وإما عن الخير ؛ فلقد ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ».

وأيضا جاء أن النبي ﷺ رأىٰ مَن يتبع حمامة فقال: «شَيْطَانٌ يَتْبَعُ شَيْطَانة».

وثبت من حديث ابن وهب رَحِمَهُ اللَّهُ بإسناد صحيح، أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيء له ببِرذون فركبه، فرآه يتبختر، فنهره فلم يزل يتبختر في مشيته، فنزل عنه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «هٰذا شيطان».

فإذن الشيطان في أصل اللغة أنه **يُطلق علىٰ مَن بعُد عن الخير أو بعد عما عليه أجناسه.**

وهٰذا المعنىٰ العام نرجع بعده إلىٰ المعنىٰ الأخص، وهو أن الشيطان هو: البعيد عن الخير، الموصوف بالشر.

وقد يكون الشيطان بعيدًا عن الخير بالأصالة كإبليس ومَن تبعه من ذريته، وقد يكون بالتأثر لا بالأصالة، وهو من صار شيطانًا من الإنس، ولهٰذا أمر الله جل وعلا في الاستعاذة أن يستعيذ المرء من نزغات الشياطين ؛ قال جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت]، وهذا في عدد من الآيات.

إذن فالعبد بحاجة إلىٰ أن يستعيذ بالله جل وعلا من الشيطان حاجة عظيمة؛ لأن الشيطان يكيد لابن آدم بأنواع المكائد ؛ يكيد له بأن يضرّ ببدنه، وبأن يضرّ بقلبه، وبأن يضرّ بأهله، وبأن يضرّ بماله، بأنواع ذلك، والشيطان لا يُرىٰ، وكيده إذا كان من الجن لا يرىٰ، وإذا كانوا من الإنس فلهم كيد للمؤمن زلهم كيد لأعدائهم، ولذلك ولا يعصم من هذا كله إلا الله جل وعلا؛ فإنه هو العاصم علىٰ الحقيقة؛ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

فهذا الشيطان نعته هاهنا بقوله: الرجيم وأصل الرجم في لغة العرب الرمي؛ إما بالأقوال، وإما بالأفعال، والرمي الذي يكون فيه رمي بالقتل، أو بالظن، أو بالقول الذي لا دليل عليه، وهذه كلها جاءت في القرآن، قال جل وعلا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف:٢٢]، يعني رميًا بالغيب، وهذا من الأقوال، ومنه أيضا قول الشاعر:

..... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيث المُرَجَّم

يعني المظنون، الذي لا دليل عليه.

نرجع إلىٰ أصل الكلام (ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) يعني المرمي المبعد عن الخير، (رجيم) بمعنىٰ مرجوم؛ رمي وأُبعد عن الخير.

فإذا عرفت هذا الوصف للشيطان علىٰ هذا النحو، وأنه بعيد جدًّا عن الخير، وأن العبد الذي يستعيذ بالله ويقرأ هذه السورة العظيمة، ويفتتح القرآن أنه راغب في الخير مقبل عليه، فليكن إذن حذِرًا من هذا الشيطان الذي وُصف بأنه مرجوم مرمي بالبعد عن الخير، مطرودٌ من رحمة الله جل وعلا.

وهذا – لا شك – أنه يتنوع بتنوع الناس، فكل واحد من المؤمنين قد أصابه -إلا من سلمه الله جل وعلا- الشيطان بنوع من الإصابة، فالعبد حين يقرأ يستحضر ذلك، ويعتصم ويلتجئ بالله جل وعلا، ويطلب التحرز من الله جل وعلا من هذا الشيطان الذي هو عدوه.

فعداوة الشيطان لابن آدم ماثلة أمام العبد المؤمن دائمًا، وإذا عرف ذلك كان عنده قوة تحميه وتحرصه بفضل الله جل وعلا من نَزَغات الشياطين ؛ وذلك لأنه دائم الاستعاذة بالله جل وعلا من الشيطان الرجيم.

قال سبحانه في أول القرآن: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وهٰذه آية، ولا نحبذ الدخول في أقوال أهل العلم فيها؛ لكن الصحيح أنها آية في أول كل سورة تنزل للفصل بين السور.. فهي آية من القرآن، ولكنها ليست آية من كل سورة، إلا أنها بعض آية في سورة النحل، في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل]. وهي ليست آية – كما هو معلوم – في أول سورة براءة.

هنا أُفتتح القرآن بها، و(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) هذه من أعظم ما أنعم الله جل وعلا به علىٰ المؤمنين عامة من أتباع الرسل ؛ لأن فيها وبها مِن تحصيل الخيرات ما الله جل وعلا به عليم.

ومعنىٰ (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) أن التالي يقول: أتلو القرآن مستعينًا بكلِّ اسم من أسماء معبودي الحق الله، الذي تَسمَّىٰ بأنه الرَّحمٰن الرحيم، والذي كمُلت له صفة الرّحمة، وعظُمت له آثارها، فهو يتلو ويقرأ مستعينًا بالله جل وعلا وبكلِّ اسم من أسماء الله جل وعلا، ومتوسلًا إلىٰ الله جل وعلا بكل اسم من أسمائه.

وتلحظ من هذا أن العبد إذا عظمت معرفته بأسماء الله جل وعلا الحسنىٰ، وبصفاته العلا، فإنه حين يقول: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) يستحضر الأسماء العظيمة لله جل وعلا، ويستحضر آثارها في ملكوت الله سبحانه، فيفيض علىٰ قلبه أنواع من العلم، وأنواع من المحبة، وأنواع من حسن الظن بالله، وأنواع من التوكل علىٰ الله جل وعلا.. وكل هذه المعاني تناسب المقصود بالبداءة بـ (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)، فهي

عظيمة جدًّا.

(بِسْمِ اللَّهِ): جار ومجرور، قال العلماء: إنه لا بد أن يتعلق الجار والمجرور إما بفعل أو بمصدر؛ يعني بشيء فيه معنىٰ الفعل، وهنا بعض أهل العلم قدرها بمصدر، يعني: ابتدائي باسم الله، تلاوتي باسم الله، وهذا لأنه جاء في القرآن تعلق الجار والمجرور (بسم الله) بالاسم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] فسَبْك الكلام: وقال اركبوا فيها مجراها ومرساها بسم الله، فصار تعلق الجار والمجرور هنا بالاسم.

وقال آخرون، وهو الأصح والأقوىٰ: إنه يتعلق بالفعل الذي يناسب المقصود، فإذا قال القائل: (بِسْمِ اللَّهِ) في أول التلاوة فيكون التقدير: أقرأ بسم الله، كما كان ذلك في أول ما أنزل من القرآن، قال جل وعلا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[العلق].

فالتقدير: أقرأ بسم الله، أتلو بسم الله، معنىٰ ذلك أتلو وأقرأ مستعينًا ومتوسلًا بكل اسم لله جل وعلا.

قال بعض أهل العلم: (بِسْمِ اللَّهِ) معناها بـ (الله)، لٰكِن هذا ليس بجيد؛ بل الصواب أنه يدخل في ذلك جميع أسماء الله جل وعلا؛ لأنه أبهم الاسم، فيصدق علىٰ قوله: (بِسْمِ اللَّهِ) كل أسماء الله جل وعلا الحسنىٰ، وهذا –لا شك – له أثر في نفس التالي، فإن كل واحد من الناس يستحضر حين تلاوته بعض الأسماء، ومن الناس من يستحضر من الأسماء الحسنىٰ، غير ما استحضره الأول، وهذا يفتح علىٰ القلب أنواع من العبوديات ربما اختلف الناس فيها.

وهذا – ولا شك – مما يناسب مقصودهم، ومما يناسب حالهم، فمثلا تجد أن التالي للقرآن وهو في كرب ربما استحضر أسماء الله جل وعلا التي فيها تفريج للكروب، ويستحضرها هو بدون قصد لذلك، وتجد أن المتعبد لله جل وعلا الذي يرجو رحمته يستحضر الأسماء التي فيها أنواع الجمال لله جل وعلا، والذي هو مذنبٌ يستحضر ما فيه جلال لله جل وعلا، وهذا يعمُّ جميع الأسماء.

بهذا نقول: إن الصحيح أن قوله هنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لا يُخصّ باسم معين، وليس تقديره: بالله، وليس كلمة (اسم) مزيدة لتأكيد الكلام، وإنما المعنىٰ: أتلو متوسّلًا أو مستعينًا بكلّ اسم لله جل وعلا.

(بِسْمِ اللَّهِ): كلمة (الله) هنا مما اختلفت فيها تعابير القوم، وسأذكر التفصيل لأجل أهميته في الاعتقاد، وذلك أن المحقّقين من أهل العلم يقولون: إن هذه الكلمة (الله) هي أعظم أسماء الله جل

وعلا، ومعناها أنها عَلَمٌ علىٰ المعبود بحق؛ إذ الآلهة التي عُبدت مع الله جل وعلا لم تُعبد بحق، والمعبود بحق هو الله جل وعلا وحده دون ما سواه. فإذن يكون لفظ الجلالة هذا علمًا علىٰ المعبود بحق.

والصحيح أنه مشتق، وليس بجامد، وأصله الإله، وإنما خففت الهمزة فصار (الله) لكثرة الاستعمال في أول حياة الناس؛ لأجل أن الشرك واتخاذ الآلهة الأخرىٰ حادث بعد ذلك.

وإذا كان أصل الكلمة (الإله) فهي كما قال العلماء: فِعال بمعنىٰ مفعول، أي: بمعنىٰ مألوه، مثل فِراش بمعنىٰ مفروش، ووِطاء بمعنىٰ موطوء، ونحو ذلك. فمجيء فِعال بمعنىٰ مفعول كثير في اللغة، كما هو معلوم.

ومعنىٰ (إلٰه): مألوه بحق، أله يأله إلهة وألوهة، إذا عُبد مع المحبة والرغبة والرجاء، فهذا هو المعنىٰ في اللغة، فمعنىٰ الإلهة العبادة، وليس معنىٰ الإلهة الربوبية، ولهذا قرأ ابن عباس – كما رُوي عنه من طرق متنوعة تفيد صحة ما نُسب إليه – أنه كان يقرأ قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] يقول: ﴿ وَيَذَرَكَ وَإِلَٰهَتَكَ ﴾ يعني وعبادتك؛ لأنه كان يُعبد ولم يكن يَعبد، ناظرًا في ذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨].

فالإلهة بمعنىٰ العبادة، ويدل لذلك قول الشاعر في رجزه المشهور:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

يعني: من عبادتي.

فإذن لفظ (الله) لا يأتي علىٰ البال، ولا يفهم منه العربي ولا يسمعه السامع إلا وتوجّه باله إلىٰ معنىٰ المستحِق للعبادة الحقة، الذي له العبادة الحقة، فلا يأتي في باله معنىٰ الربوبية بالمطابقة. وإنما الذي له الإلهة الحقة ويستحق العبادة دونما سواه لا شك أنه يتضمن أنه هو ذو الربوبية، وهو المستحق للربوبية؛ لأنه لا يستحق العبادة وحده دونما سواه إلا من كان بيده ملكوت كل شيء.

ولهٰذا تجد في القرآن كثيرًا ما يُحتج علىٰ المشركين في إنكارهم لتوحيد الإلهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية كما سيأتي تفصيله.

إذن عندما يقول القائل: (بسم الله) ينظر هنا أن هٰذه الأسماء هي للمعبود بحق، فتنخلع عند ذلك من قلب القائل كل الأسماء التي سُمي بها الآلهة الباطلة، ويبقىٰ القلب خالصًا في توجهه وفي ابتدائه للتلاوة

لله جل وعلا وحده دونما سواه.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: نعتان للفظ الجلالة، فـ (الرَّحمٰن) نعت أول و(الرحيم) نعت ثانٍ للفظ الجلالة (الله)، وقد يكون الرحيم نعتًا للرحمن باعتبار أن الرَّحمٰن دال علىٰ الذات المتصفة بالرحمن.

و(الرَّحمٰن الرحيم) اسمان من أسماء الله جل وعلا الحسنىٰ، متضمنان صفة الرحمة لله جل وعلا، و(الرَّحمٰن) كما يقول العلماء: أعم وأشمل وأبلغ من (الرحيم)، فـ(الرَّحمٰن) صيغة مبالغة من الرحمة، وهي أعظم مبالغة وأوسع شمولًا، وأبعد أثرًا ومتعلقًا من (الرحيم)، ولهٰذا قال بعضهم: إن (الرَّحمٰن) هو رحمان الدنيا والآخرة، وإن الرحيم هو رحيم الآخرة.

لكن نقول: إن الصحيح أن بينهما فرقًا، وأن (الرَّحمٰن) أعم وأشمل، وأن الرحيم خاص ويعني ذو الرحمة الخاصة. ورحمة الله جل وعلا الخاصة إنما هي بالمؤمنين، وأما رحمته العامة فتشمل كل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر: ٧]، فكل شيء وسِعته رحمة الله.

فقول القائل: (بسم الله الرَّحمٰن) ينعت الله جل وعلا، مثنيًا عليه بهذا الاسم المتضمن لصفة الرحمة، التي هي موصوفة بأعظم الأثر والمتعلّق، والتي شملت كل شيء، فهي تعرُّضٌ لأن يكون العبد مشمولا بهذه الرحمة العامة. والعبد مع ذلك يحتاج إلىٰ الرحمة الخاصة، فلهذا نعت الله جل وعلا بقوله: (الرَّحيم).

ولا شك أن هذا من تعليم الله جل وعلا لعباده، وهذا من رحمة الله جل وعلا بعباده، أن ابتدأ كلامه بهذه البسملة التي يحتاج العباد إليها، والله جل وعلا غنيٌّ عن العباد، لكنه يحب أن يمجِّده عبده، ويحب أن يثني عليه عبده، وأن يلهج لسانه وفعله بتمجيده والثناء عليه سبحانه.

وتلحظ من هذا الكلام أنك إذا ردّدت هذه الآية العظيمة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وتأملت ؛ فإنك ينفتح لقلبك أنواع من العبوديّات لله جل وعلا لم تكن تُدركها بدون العلم بمعاني أسماء الله جل وعلا الحسنىٰ وأسرار هٰذا التركيب المجتمع معًا.

فالاستعاذة فيها تحريز للنفس من الخوف، وقوله: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيها فتحٌ للنفس في أبواب الرجاء في الله – جل وعلا– ومحبته، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد أنه سبحانه هو الذي يوفق، وهو الذي

يهدي، وهو الذي يبارك فيما يقرأ العبد، وفيما يتلوه، وفيما يأكله، وفيما يشربه، وفي كل أمره.

فانفتح إذن للقلب بابان:

الباب الأول: باب الخوف.

والثاني: باب الرجاء في الله جل وعلا وحسن التوكل عليه وتفويض الأمر إليه جل وعلا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾: هٰذه أول بية في سورة الفاتحة.

يقول العلماء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ هذه الآية ثناء علىٰ الله بحمده؛ كما مر معنا في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في «الصحيح» «أن العبد إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ قال الله تعالىٰ: حَمِدَني عَبْدِي».

فما معنىٰ الحمد؟

الحمد هو الثناء عن محبة للمحمود. فإن كان الثناء عن غير محبة سُمي مدحًا. والله – جل وعلا– محمود وممدوح، وحمده أعظم من مدحه جل وعلا؛ لأن المدح قد يكون عن غير محبّة.

أمّا الحمد فهو ثناءٌ بأوصاف الكمال علىٰ المحمود المحبوب. ولهٰذا سيأتي أنواع الثناء.

فإذن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ معناها: كل أجناس المحامد، وكل أنواع الثناء مستحقة لله المعبود بحق، الذي هو رب العالمين، المتصرف في العالمين؛ في أجناس العوالم ؛ في البر والبحر، في الأرض والسماء، ما علمنا وما لم نعلم، ما رأينا وما لم نرَ، ما سمعنا وما لم نسمع، فكل ثناءٍ مستحق لله جل وعلا الذي له الربوبية الكاملة علىٰ خلقه أجمعين.

(الحمد) مكونة من كلمتين: (أل) مع (حَمْد)، و(أل) قال العلماء: إنها لاستغراق الأجناس، ومعنىٰ ذلك أن قولك: (الحمد) معناه كل أنواع وأجناس الحمد لله رب العالمين. فما هي أجناس وأنواع الحمد التي يستحقّها الله جل وعلا؟

أنواع كثيرة، لكن جِماعها خمسة، لو استحضرها العبد، أو استحضر واحدًا منها كل مرة وهو يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ لفُتحتْ له أنواع وأبواب من محبة الله ومن تمجيده وتعظيمه وحُسن الثناء عليه، وعلوم وعبادات قلبية لا يعلمها إلا مَن عاشها وعرَفها.

فما أنواع المحامد لله جل وعلا التي دلّ عليها القرآن والسنة؟

إن أنواع المحامد لله جل وعلا خمسة أنواع:

النوع الأول: أنه جل وعلا **محمود علىٰ أنه واحد في ربوبيته**، وأنه هو الرب المالك السيد المتصرف في هذا الملكوت بأجمعه، لا رب لهذا الملكوت بأجمعه غير الله جل وعلا، فتُثني علىٰ الله جل وعلا بهذا الوصف الذي هو رب هذا الملكوت جميعا، أنه رب العالمين، أنه رب جميع الأصناف.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الإسراء:١١١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر:١]، فهذا كله من حمد الله جل وعلا لمعاني الربوبية؛ أن تستحضر معاني الربوبية وآثارها في الخلق؛ ربوبيته جل وعلا بأنواعها: تصرفه، إفاضته للخير، حبسه الشر، تلطّفه بالعباد، رحمته بهم، وكلها يستحق عليها جل وعلا أعظم الثناء علىٰ وجه الكمال.

النوع الثاني: أن الله جل وعلا **محمود علىٰ أنه مستحق للإلهية وحده دونما سواه**، أي محمود علىٰ أنه موحّد في إلهيته جل وعلا، فالله جل وعلا هو الإله الحق المبين، وما عداه من الآلهة فإنما عبادتها بالبغي والظلم والعدوان، فهو الذي يستحق أن يعبده العباد، وأن يذلوا له، وأن يحبوه، وأن يرجوه، وأن يخافوه، وأن يحسنوا الظن به، وأن يتوكلوا عليه، وأن يستعينوا به، وأن يستعيذوا به، وأن يستغيثوا به، وأن ينحروا له، وأن يذبحوا له، وأن يصلوا له... كل ذلك له وحده جل وعلا؛ فيُثني العبد علىٰ الله جل وعلا بأنه هو الذي يستحق هٰذه الأمور من العباد بأجمعهم علىٰ اختلاف أنواعهم، الذين هم في السماء ما بين راكع وساجد ومثنٍ علىٰ الله جل وعلا، والذين هم في الأرض بأنواعهم؛ ممن في البر وممن في البحر وممن في الجو= كلهم يسبّحون الله جل وعلا ويُثنون عليه ويعبدونه وحده دون ما سواه. وأما الناس فإنما الذي يعبده دونما سواه كثير منهم.

النوع الثالث: أنه **يحمد علىٰ ما له من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا**، فهو جل وعلا محمود علىٰ أنه ذو الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، يعني أنه مُثنًىٰ عليه بأنه الذي له الأسماء الحسنىٰ التي بلغت في الحسن نهاية الحسن، ومحمود مُثنًىٰ عليه بأنه الذي له الصفات العلا، الذي له الصفات الكاملة علىٰ وجه الكمال، فله من الصفات أكملها، وله من كل صفة كاملة أكملها، ليس له جل وعلا النقص، والشر ليس إليه، بل هو جل وعلا الكامل في أسمائه وصفاته.

وأسماؤه وصفاته لها آثار في خلقه عظيمة، يسبح القلبُ فيها بأنواع من الثناء لله جل وعلا، فإذا

تأملت وصف الله جل وعلا أو اسمه الغفور نظرت في آثار مغفرته لعباده، وإذا تأملت في اسم الله جل وعلا الرحيم نظرت في آثار رحمته التي أفاضها علىٰ عباده، وإذا نظرت في اسم الله جل وعلا العزيز نظرت في عزة الله جل وعلا وكيف جعل العزة له ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين.

إذا نظرت إلىٰ أسماء الله ترىٰ أن كل اسم له أثره في هذه الحياة.. له أثر في ملكوت الله جل وعلا، لا شك.

وهٰذا ذا تأمل هذا العبدُ وعلم هذه المعاني للأسماء والصفات سوف يلهج بثناء علىٰ الله عن محبة وبشيء لم يثنِ علىٰ الله جل وعلا به مَن جهل تلك المعاني العظيمة.

ولهذا كان أحب الكلام إلىٰ الله جل وعلا تنزيهه عن النقائص، وإثبات أوصاف الكمال له جل وعلا، كما جاء في آخر حديث في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ، قال: « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ» فشملت التسبيح والحمد، وهما من أعظم ما يكون من الكلام في هذا الوجود.

النوع الرابع: حمد الله جل وعلا والثناء عليه لإنزاله هذا الكتاب العظيم، ولما أمر وشرع، فهو محمود علىٰ إنزاله الكتاب ؛ قال جل وعلا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف]، وهو محمود علىٰ كل أمر في القرآن، وعلىٰ كل نهي ؛ لأنه جل وعلا أوامره كلها فيها محبته، واجتناب نواهيه جل وعلا يحبها، فأوامره ونواهيه محبوبة جل وعلا امتثالًا في الأوامر واجتنابًا للنواهي، فيُثنىٰ علىٰ الله جل وعلا بإنزاله الكتاب لهداية الناس بهذه الأوامر التي بها صلاح الناس في جميع ما شَرَع وشرّع في الأحكام، سواء في أحكام العبادات، أو في أحكام المعاملات، سواء فيما يخص الفرد أو ما يخص الجماعة، سواء في ذلك الأحكام العملية، أو الأحكام الخبرية، يعني في أمور العقائد، كل ذلك يُثنىٰ علىٰ الله جل وعلا به.

ومن يعلم هذه المعاني حين يقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف] يعلم معنىٰ الثناء علىٰ الله جل وعلا بإنزاله الكتاب، وأنه جل وعلا مثنىٰ عليه بهذه المِنَّة العظيمة علىٰ عباده.

النوع الخامس: أنه سبحانه **محمودٌ ومثنىٰ عليه بما أمر به وقضىٰ به كونًا**، وما قدره علىٰ عباده، وهذا يدخل فيه النعم ؛ لأنها مما جعله الله جل وعلا من أموره وأوامره الكونية، وهذا هو الذي يستحضره

العامة، أو كثير من الناس، فحينما يقول: (الحمد لله) فإنه يستحضر معنىٰ الثناء علىٰ الله بهذه النعمة، وهذا فرد من أفراد كثيرة، ونوع من أنواع كثيرة من محامد الله جل وعلا.

ولهٰذا فأنواع محامد الله جل وعلا كثيرة لا تحصىٰ، وقلب المؤمن لا يمكن أن يستحضرها جميعًا، فحَسَن أن يعوّد العبد المؤمن نفسه أن يستحضر واحدة منها وهو يحمده جل وعلا في الصلاة أو في أدبار الصلاة، فيستحضر نوعًا منها ويتأمله، فمثلا في إحدىٰ الصلوات يحمده سبحانه علىٰ ربوبيته وآثار الربوبية في خلقه، ومعاني الربوبية، ثم في الصلاة الأخرىٰ يحمده علىٰ المعنىٰ الثاني... وهكذا، حتىٰ يعوّد نفسه وقلبه علىٰ أن يثني علىٰ الله – جل وعلا– بهذه الأنواع جميعًا.

وقد جاء عن النبي – عليه الصلاة والسلام – في حديث الشفاعة الطويل الصحيح: «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»، لاحظ « وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا » وهو – عليه الصلاة والسلام – أعلم الخلق بربه، وأحسنهم ثناءً عليه، وأبلغهم وصفًا له، وحمدًا له جل وعلا، ومع ذلك يفتح عليه أنواع من المحامد لله؛ لأن حمد الله جل وعلا لا يبلغه الحامدون مهما أوتوا، وهذا – لا شك – مما يجعل قلب المؤمن يلين تعظيمًا لله، وثناءً علىٰ الله، ومحبة وإجلالا له.

هذه أنواع المحامد الخمسة، يعني كل أنواع المحامد وكل أجناس المحامد لله، فما معنىٰ (لله)؟ يعني مستحقة لله، ذلك أن اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ هي لام الاستحقاق، ومع الاستحقاق هاهنا معنىٰ المِلك، الله جل وعلا هو مالك المحامد، وكذلك هو مستحقها جل وعلا، لا يستحقها علىٰ هذا الوجه إلا هو جل وعلا.

وأما المخلوق فقد يستحق نوعًا من أنواع المحامد، قد يستحق فردًا من أفراد نوع من هذه الأنواع، لكنها علىٰ هذا الوجه العظيم مستحقة لله جل وعلا وحده.

واللام غالبًا إذا أتىٰ قبلها عيْن (أعيان) تكون لام المِلك، وإذا أتىٰ قبلها معنًىٰ فتكون لام الاستحقاق، مثلًا تقول: الكتاب لفلان، فهذه لام الملك؛ لأن ما قبلها عين، فإذا كان ما قبلها معنًىٰ صارت لام الاستحقاق؛ فـ (الحمد لله) تعني الحمد المستحق لله، نحو: (الفخر لفلان)، (الكبرياء لله)،

وهكذا.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾: لاحظ هنا أن هناك فرقًا بين الربوبية والألوهية، فنعت المعبود بحق بأنه رب العالمين، وفي هذا أعظم الدليل علىٰ أن الربوبية ليست هي الألوهية، وأن الربوبية لها معنىٰ، وأن الألوهية لها معنىٰ، وهذا بمتقضىٰ اللغة، فما معنىٰ الرب بمقتضىٰ اللغة؟

الرب في اللغة: هو المتصرف في الملكوت، والمتصرف في ملكه، والسيد المطاع في أمره. وربوبية الله جل وعلا للعالمين ظاهرة؛ ذلك أنه جل وعلا هو المتصرف في هذا الملكوت، وهو المدبر له، وهو الذي ينفذ أمره في هٰذا لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا يُراجع جل وعلا في أمره وكونه.

وبهذا نعلم غلط المبتدِعة من الأشاعرة ونحوهم الذين فسّروا الألوهية بأنّها الربوبية، كما قال المتكلّمة، يقولون: إن الإله هو القادر علىٰ الاختراع، وأن الله علم علىٰ القادر علىٰ الاختراع.

القدرة علىٰ الاختراع هذه من معاني الربوبية، ليست من معاني الألوهية، لا باللغة ولا بالعُرف الخاص بالعرب، ولهٰذا قال قائل منهم، وهو السَّنوسي في عقيدته هي المعروفة بـ«أم البراهين» – أبعدنا الله جل وعلا عنهم وعن بدعهم وأقوالهم ومخالفتهم وضلالاتهم – يقول في تفسير الإله: الإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. يقول: فمعنىٰ (لا إله إلا الله): لا مستغني عما سواه، ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله.

فمعنىٰ هذا أنه فسر الربوبية بالألوهية، وهذه الآية ردٌّ عليهم.

وتفسير الألوهية بالربوبية أعظم ما يُدخل منه إلىٰ أن المشركين في العبادة أنهم ليسوا بكفار؛ لأنهم لم ينكروا الربوبية، هم مقرّون بأن الله هو القادر علىٰ الاختراع، هو المستغني عما سواه، هو المفتقِر إليه كلُّ ما عداه، فكيف يكونون كفارًا؟! فتفسير الإلهية بمعنىٰ العبادة ينقض هذا الأصل من أساسه؛ ولهذا في هذه الآية دليل ظاهر علىٰ التفريق بين الألوهية والربوبية.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: (رب) نعت للفظ الجلالة، و(العالمين) جمع تصحيح للعالم، والعالم جمع أيضًا لا واحد له من لفظه، والعالم جنس تحته أنواع مختلفة، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الأصول الثلاثة»، يقول: (وكل مَن سوىٰ الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم). فالعوالم كثيرة ؛ عالم الإنس، عالم الجن، عالم الملائكة، عالم الطير، عالم الدوابّ، عالم النّبات، عالم الهواء،

العوالم مختلفة وسميت عالمًا لأن بها علم أحقية من أوجدها بالربوبية الكاملة، وبأنه المعبود بالحق.

فإذن معنىٰ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أجناس هذه العوالم المختلفة؛ ما علمتَ منه وما لم تعلم، فكل ما سوىٰ الله عالم، فيدخل في هذا كل ما سوىٰ الله جل وعلا من العرش فما دونه.

فهذا هو معنىٰ هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾، فصار إذن معناها: كل أنواع المحامد، وكل أجناس الثناء مستحقٌّ لله، المعبود بحق، الذي له التصرّف، والذي أمره نافذ في جميع العوالِم كلها، وهي كلّ ما سوىٰ الله جل وعلا. وهٰذا لا شك يفتح أنواعا من سعة القلب لتحمل هٰذه الأمور.

لاحظ بعض العلماء هنا في معنىٰ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معنىٰ التربية، والله جل وعلا هو الذي ربىٰ العالمين بنعمه، ربىٰ العالمين بتدرجهم في الخلق. وأصل التربية هي التدريج، فمعنىٰ ربّاه: درّجه في مراتب الكمال المناسب له. والرب الذي هو السيد المطاع المتصرف، فهو يرقّي من تحته أو يدرجهم فيما يصلح لهم، وذلك لحاجته إلىٰ ذلك، أما الله جل وعلا فليس محتاجًا إلىٰ أحد؛ بل الخلق جميعًا محتاجون إليه في كل أمورهم، ولو استغنىٰ مستغنٍ عن الله جل وعلا طرفة عين لهلك من ساعته.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من العالِمين بكتابه.

قال العلماء في هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: إنها تفتح باب المحبة لله جل وعلا.

لاحظ أن الاستعاذة فتحت باب الخوف.

والبسملة فتحت باب الرجاء.

والحمدلة هنا فتحت باب المحبة لله جل وعلا ؛ لأن الذي هذا وصفه ألا يُحَب؟! فهو رب العالمين، وهو صاحب هذا الملكوت كله، الذي بيده كل شيء، يُفيض الخير علىٰ مَن يشاء، ويحبس عمَّن يشاء، يُعِزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء.. فهذا القوي العزيز الذي له هذه الصفات وهذه النعوت، وهذا الجلال، ألا يستحق أن يُحَبَّ؟ بلىٰ.. ولا شك.

وفي الآية بعدها قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ وهذه تفتح باب الرجاء. لاحظ: رجع الرجاء من جديد.

ثم في الآية بعدها: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ تفتح باب الخوف، ويوم الدين هو يوم الجزاء – كما سيأتي تفصيله – فرجع الخوف من جديد.

فتنقَّل التالي بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿١﴾ من خوف إلىٰ رجاء إلىٰ محبة، ثم تنقَّل من المحبة إلىٰ الرجاء إلىٰ الخوف، ثم أتىٰ بعدها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - كما سنفصله إن شاء الله تعالىٰ - وذلك أن العبادة مبناها علىٰ هذه الأركان الثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء.

وذلك أن المحبة تحرِّك، فمحبتك للشيء تحركك فيه، ومحبتك لله تجعلك تتحرك لله، ومحبة أهل الدنيا للدنيا تجعلهم يتحركون لهم، محبة المحبين للملوك تجعلهم يتحركون لهم، وهكذا...

فمحبة المؤمن لله تجعله يتحرك في طاعة الله، لٰكِن هذه الحركة قد تنقطع، فلا بد له من أن يكون راجيًا لرحمة الله جل وعلا، ورجاؤه لرحمة الله جل وعلا لا ينقطع عنه ما دام حيًّا، فلذلك سبقتها البسملة التي فيها الرحمة وفيها الرجاء، وبعدها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ التي فيها الرجاء، ثم كان السابق هو الاستعاذة، والخاتم أيضًا وهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ وهو الخوف، ذلك أن المحب لله جل وعلا الذي يرجوه ويتحرك في مرضاته، يريد كا عنده لا يمكن أن يثبت علىٰ هذه الحركة في طاعة الله، ولا يثبت علىٰ هذا السير دون أن يلتفت يمينًا أو شمالًا، ودون أن يأخذ السبل، إلا أن يكون خائفًا.

فاجتمعت هٰذه الآيات في إعمار القلب بأعظم الإيمان، وهو أركان العبادة، الذي من قام بها علىٰ وجه الكمال فقد قامت به العبادة الحقة علىٰ وجه الكمال.

نقف في التفسير إلىٰ هٰذا الحد، عند قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ ونحتاج إلىٰ أن ننبه إلىٰ أن هٰذه الطريقة، وهٰذا التطويل ربما لا نسلكه في تفسير غير الفاتحة؛ لٰكِن الفاتحة بحاجة أن يعلمها طلاب العلم، يعلم معانيها وما فيها من المعاني والأسرار وما فيها من الحكم، لهٰذا صارت أم القرآن، وصارت السبع المثاني، وصارت القرآن العظيم لعظم فهمها، لهٰذا إذا أطلنا فيها ربما إلىٰ درسين يكون منكم الصبر علىٰ ذلك ثم بعد ذلك نكون إن شاء الله علىٰ اختصار مع أنها هٰذه الطريقة هي طريقة التفصيل هي أحب إلي في ذكر المعنىٰ الإجمالي ثم التفصيلي؛ لأن فيه إبداءً لأنواع من العلوم والمعاني التي ربما لم تدرك بقراءة كتاب تفسير واحد.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الدرس الثاني

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ الحمد لله ذي المحامد كلها، وذي الفضائل كلها، وذي النعم كلها، له الحمد في الأولىٰ والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، استغرق حمدخ الأزمنة، واستغرق حمده الأمكنة، وإن من شيء إلا يسبح بحمده لٰكِن لا تفقهون تسبيحهم.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، صلىٰ الله عليه، وعلىٰ آله وصحبه، ومن اهتدىٰ بهداهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فقد مر معنا فيما سبق تفسير الاستعاذة وتفسير قوله تعالىٰ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾: اسمان من أسماء الله الحسنىٰ، وهما في هذا الموضع من حيث العربية نعتان للفظ الجلالة (الله)، وهما نعتان للذات المدلول عليها باسم الجلالة (الله).

فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١﴾ نعت أول، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ نعت ثانٍ، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ نعت ثالث، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ نعت رابع.

والرَّحمٰن الرحيم: اسمان من الأسماء الحسنىٰ تضمنا صفة الرحمة لله جل وعلا، وتَضَمُّنُ اسمِ اللهِ (الرَّحمٰن) لصفةِ الرحمةِ أبلغُ وأعظم وأوسع متعلَّقًا من تضمن اسم الله (الرحيم) لتلك الصفة، وقد مرّ معنا أن الرَّحمٰن: هو المتصف بالرحمة الواسعة، التي استغرقت الأزمنة في الدنيا والآخرة. والرحمة من صفات الله الذاتية، و(الرحيم): تضمن صفة الرحمة المتعلقة بالآخرة. وعلىٰ هذا دلت تفاسير السلف، كما ساق ذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن الرَّحمٰن هو رحمان الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة.

والله جل وعلا موصوف بأنه ذو الرحمة، قال جل وعلا: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦]، فرحمته جل وعلا وسعت كل شيء، ولفظ (شيء) اسم لما يصح أن يعلم، ومعلوم أن ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ – كما ذكرنا قبل – جمع العالم، والعالم هذا سميت به أنواع العوالم؛ لأن بها عُلم أن الله جل وعلا هو الخالق المتفرد بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وأنواع معاني الربوبية، وهذا وجه مناسبة لذكر اسم الله (الرَّحمٰن) بعد قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وذلك أنه متضمن لصفة الرحمة التي تعلقت بكل شيء،

إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

أما في الدنيا: فإن متعلق الرحمة كل شيء، كما قال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، ورحمة الله جل وعلا ظاهرة في أنها شملت العرش ومن حوله، والكرسي وما تحته.. والسموات إنما قامت برحمة الله جل وعلا، ومَن في السَّمٰوات وما في السَّمٰوات إنما قام برحمة الله جل وعلا، لا غنىٰ للسموات ومن فيها وما فيهنّ عن رحمة الله جل وعلا طرفة عين ؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٤١] فما في السماء الدنيا من أنواع العوالم ؛ من أنواع ما يطير من الأحياء، وما فيها من أنواع ما خلق الله جل وعلا مما نعلم من الهواء ونحوه، ومما لا نعلم ؛ كل ذلك من رحمة الله جل وعلا بالمخلوق نفسه، ومن رحمته جل وعلا بمن يستفيد وينتفع بتلك المخلوقات.

إذا نظرت إلىٰ الأرض بأنواعها من جبل ووادٍ وسهل وحزن وشجر، وجميع معالمها فإنما هي برحمة الله جل وعلا قامت، كل هذا يدل عليه هذا الاسم (الرَّحمٰن)، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ لأن رحمته تعلقت بكل العالمين جل وعلا.

إذا نظرت إلىٰ البحر، وما في البحر، وإلىٰ أنواع ما في الأرض، وما تحت الأرض من الأحياء، وما فيها من أنواع مخلوقات الله جل وعلا الحية وغير الحية، كل ذلك إنما يعيش برحمة الله جل وعلا، وهذا يبلغ مبلغًا عظيمًا في قلب العبد، وفي معرفة آثار الرحمة وآثار اسم الله الرحمن بقدر ذلك.

ولقد حكىٰ ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في التفسير الاتفاق علىٰ تعلق الرحمة التي في اسم الله (الرَّحمٰن) بالدنيا والآخرة، وأما اسم الله (الرحيم) فهو متعلق بالآخرة.

ولهذا نقول: إن شمول الرحمة للكفار إنما هو في هذه الدنيا، فهم داخلون في متعلق الرحمة في قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، فالكافر مرحوم في هذه الدنيا بأنواع الرحمة، قال جل وعلا: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ [البقرة:١٢٦]، فالكافر يمتَّع في الدنيا بأنواع المتاع، ويعيش عيشة ربما كانت هنية طيبة، مع أنه كافر يحمل الشرك بالله، ويحمل الكفر بالله جل جلاله، والعياذ بالله، ولكن رحمة الله جل وعلا عمت في الدنيا كل شيء.

وأما في الآخرة فإن اسم (الرَّحمٰن) يشمل رحمة الله جل وعلا للمؤمنين في الآخرة ؛ لأن الرحمة في الآخرة تكون بالمؤمنين، قال جل وعلا: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ ﴾ [الأحزاب].

قال: ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والرحيم يعني بالمؤمنين في الآخرة، وهاهنا وقع تكرار في المعنىٰ مع تنوع اللفظ،

(الرَّحمٰن) يدل علىٰ رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الآخرة، وعلىٰ رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الدنيا، (الرحيم) يدل علىٰ رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الآخرة، فتكرر ذكر رحمة الله للمؤمنين في الآخرة: بسم الله الرَّحمٰن، وبسم الله الرحيم، وتكرر ذكر رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الدنيا؛ الرحمة الخاصة بهم بقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وبقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾؛ ولهذا قال أهل العلم: إن هذين الاسمين (الرَّحمٰن الرَّحيم) يفتحان لمن عقَل أوسع أبواب المحبة لله جل وعلا، ويفتحان لمن عقَل أوسع أبواب الرجاء لله جل وعلا، وقد قال الله جل وعلا في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ».

وذكرتُ فيما سلف أن قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يفتح باب المحبّة، وأن قوله هنا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يفتح باب الرّجاء في القلب.

ومبحث الأسماء والصفات يبحثه كثير من المفسرين في هٰذا الموضع، والذي نذكر منه هو رحمة الله جل وعلا وتكرير إثباتها؛ وذلك أن الرحمة معنًىٰ قام بالله جل وعلا، فهي صفة ذاتية قامت بالله جل وعلا.

والرحمة – وما كان من جنسها من الصفات – [قد يعسر تفسيرها بمعنىٰ يشمل جميع أفرادها]؛ وذلك لأن المعاني الكلية لا توجد علىٰ وجه كلي إلا في الأذهان، أما في الواقع، في الوجود، خارج الذهن ؛ فإنما توجد مضافة، توجد منسوبة، فيقال: رحمة العبد بالعبد، رحمة الوالد بولده، رحمة الأم بوليدها، رحمة الله بخلقه، ونحو ذلك.

فما كان من المعاني الكلية فإنه يعسر تفسيره بتفسيرٍ جامع يصلح لما يتعلق بالمخلوق ولما يتعلق بالخالق، ولهذا كثير من العلماء إذا أتىٰ ذِكْر تفسير الرحمة أو نحوُها من المعاني التي هي صفات لله جل وعلا فإنهم يقولون: إن الرحمة صفة. ولا يدخلون في تفسيرها.

وهذا معنىٰ قول السلف: أمروها كما جاءت؛ لأن في تفسيرها قد يلحظ فيه المفسر مَن تعلقت به الرحمة وقد يلحظ في ذلك المخلوق، ولهذا ضل مَن ضل من المبتدِعة، حيث فسروا الرحمة بالرحمة في المخلوق، فقالوا: الرحمة المعقولة هي: ميل القلب لمن يُرحم، وهٰذا التفسير إنما نظروا إليه من جهة تعلُّقه بالبشر، وهٰذا من الأغلاط الكبيرة في تفسير هذه المعاني.. فهذه الصفات التي هي ليست ذوات

يمكن أن تحد إنما هي معان، ففسُّروها ببعض مَن تعلقت به، وهو المخلوق، ولما استحضروا ذلك قالوا: إذن لا تصلح وصفًا لله جل وعلا! !

وهم لم يفسّروا الرحمة من جهة المعنىٰ الكلي العام الذي يصلح لكل من اتصف بها، وإنما فسروها ببعض مَن اتصف بها؛ وهو المخلوق، ثم سعوا في نفيها عمن اتصف بها أيضا وهو الخالق سبحانه.

ولهذا يحرفون ويقولون: إن الرحمة هي إرادة الإحسان إلىٰ الغير. وهم – أعني الأشاعرة والماتُرِيدِيَّة والكُلَّابية ونحوهم ومن شابههم – فسروها بهذا التفسير لأن الإرادة عندهم صفة دلّ عليها العقل، وهم يثبتون سبع صفات، وكل صفة في القرآن ليست من الصفات السبع التي يثبتونها لدلالة العقل فإنهم يرجعون تفسيرها في القرآن إلىٰ أحد الصفات السبع المذكورة عندهم لدلالة العقل، فيقولون: الرحمة إرادة الإحسان، الغضب إرادة الانتقام، الرضا إرادة الإنعام... ونحو ذلك، فهم يفسرونها بالإرادة؛ لأن الإرادة أحد الصفات السبع التي يثبتونها، وهذا مصير منهم إلىٰ أنها في هذه الآية وما شابهها مجاز عن الإحسان، أو إرادة الإحسان.

وهاهنا تنبيه بهذا المقام، للمناسبة، وهو أن المجاز في الصفات ممتنع باطل ؛ وذلك لأن أهل المجاز يعرِّفون المجاز بأنه نقل اللفظ من وضعه الأول إلىٰ وضع ثانٍ لمناسبة بينهما. فهم يشترطون أن يكون الوضع الأول للفظ معلومًا، ولهذا ينقلونه من الوضع الأول إلىٰ الوضع الثاني لمناسبة، وباطل أن يكون الوضع الأول في اتّصاف الله جل وعلا بالرحمة معلومًا للمخلوق علىٰ وجه الكمال، وإنما يعلم منه ما دل عليه المعنىٰ.. يعلم بعض المعنىٰ، وأما الرحمة في معناها الكامل الذي هو وصف لله فإن هذا لا يُعلم، فلهذا امتنع أن يكون الوضع الأول معلومًا، ولهذا بطلت دعوىٰ المجاز في كل الصفات؛ لأن الوضع الأول – علىٰ حد تعريفهم – ليس معلومًا، فيَمتنع الانتقال، كما هو قول المحققين من أهل اللغة، وأهل التفسير، وطوائف كثيرة من العلماء. فهذه إشارة لهٰذه المسألة العظيمة.

قال سبحانه وتعالىٰ بعد ذلك: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾، وهذا نعت بعد النعوت السالفة، و(مالك) من أسماء الله جل وعلا، فهو المالك سبحانه.. فهنا سمىٰ الله جل وعلا نفسه بخمسة أسماء:

الأول: أنه الله. **الثاني**: أنه الرب، أو رب العالمين. **الثالث**: أنه الرحمن، **الرابع**: أنه الرحيم. **الخامس**: أنه مالك يوم الدين.

وهذه الأسماء الخمسة إذا تأمّلت تتفرع عنها من حيث المعنىٰ جميع الأسماء، وأسماء الله – جل جلاله – منها ما هو راجع إلىٰ معنىٰ الجلال، ومنها ما هو راجع إلىٰ معنىٰ الجمال، ومنها ما هو راجع إلىٰ معنىٰ الرُّبوبية، ومنها ما هو راجع إلىٰ معنىٰ الألوهية، وهنا الرّبوبية ذُكرت بقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ﴾، وذُكرت بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾، ونُعوت الجلال هنا ذكرت بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾؛ لأن هذا يورث إجلاله جل وعلا والهيبة منه والخوف، والوجل منه، وذُكرت صفات الجمال في قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾، كذلك الصّفات الراجعة إلىٰ الألوهية بذكر اسمه (الله) الذي هو أعظم الأسماء.

فإذن في هٰذه السورة أصول الأسماء الحسنىٰ، كما يقوله ابن القَيِّم وشيخه شيخ الإسلام – رحمهما الله تعالىٰ – وجماعات كثيرون من المحققين في مسائل الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ يبعث – ولا شك – علىٰ الخوف؛ لأن يوم الدين هو يوم الجزاء، يوم الحساب، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

فقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ هٰذا مورث للخوف لمن عقله، فمن قالها وهو يتذكر ما في قلبه من أنواع الشُّبهات، وأنواع الشهوات، التي منعت استسلامه الكامل لربّه جل وعلا، فإن كان يعقل ما يقول، فسيورثه ذلك خوفًا من ذلك اليوم؛ الذي يحاسب الله جل وعلا فيه الخلائق، ولهٰذا قال العلماء: إن الله – جل جلاله – بدأ في هٰذه السورة بذكر ما يورِث في العبد المحبة لله، وهو ربوبية الله جل وعلا للعالمين، وذكر بعده ما يبعث الرجاء في القلب بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾، ثم ذكر ما يَبعث الخوف في القلب، وهو قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾، وسيأتي عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ سبب ذكر هٰذه الثلاث مجتمعة في هٰذه الآيات المتتابعة.

قال هنا: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ وقد قُرئ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾، و(مالك) من أسماء الله الحسنىٰ، و(ملك) كذلك من أسماء الله جل وعلا، وهناك فرق بينهما:

فـ(مالك) من المِلْك أو المَلْك، وهو تملك الأشياء، كما تعقل من قولك: ملكت البيت، وملكت الكتاب.

وأما (ملك)، فهو من المُلك، والمُلك معناه السيادة، والتدبير، والتصرف. قد لا يكون ذو المُلك مالكا للأعيان، ولكن ينفذ فيها تصرفه، ويسوسها ويدبرها.

والله – جل جلاله – موصوف بالصفتين، ومسمىٰ بالاسمين، وهذا أبلغ ما يكون، فإذا تعلق قلب بشر بما يراه في ملوك الدنيا ؛ من سعة الملك، والتدبير، والأمر والنهي، والطاعة لهم، وما يحدثون في ذلك من أنواع الهيبة، أو الإنعام، أو نحو ذلك، فإنهم يتقاصرون مهما بلغوا في ذلك عن أن يكونوا مالِكين، وأن يكونوا مُلوكًا.

وهنا قال تعالىٰ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ فهو يملكه ملكًا، وأيضا هو ملك جل وعلا في ذلك اليوم، فقوله هنا: ﴿ مَٰلِكِ ﴾ فيه رعاية لهٰذا المعنىٰ، وهو أن كل شيء في ذلك اليوم يملكه سبحانه، ومعنىٰ ذلك أنه إنما يرجع له جل وعلا، يتصرف فيه، ينفذ فيه أمره، لا يتصرف ولا يفعل شيئا إلا من بعد إذنه، فإذا كان ثم تعلق بغير الله جل وعلا فإن قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ كما نبه إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه السورة؛ قال: (في هذا إبطال لتعلق القلب بغير الله من الصالحين والأنبياء والمعبودين الذين يطمع الطامع في شفاعتهم).

فإن الله – جل جلاله – قال في ذكر يوم الدين: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾ [الانفطار٩]، المعنىٰ: لا تملك أيّ نفس عن أي نفس شيئا؛ لا تنفعها بشيء، ولا تدفع عنها شيئًا، والملك والمالك لذلك هو الله جل وعلا، ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾ وهذا فيه إحداث لتعلق القلب بالله جل وعلا وحده ؛ لأنهم إنما طمعوا في أن يكون أولئك شافعين ومقربين من الله، وهذا كله باطل بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾: كلمة (الدين) جاءت في القرآن علىٰ معانٍ، وأصلها في اللغة من العادة المتكررة، قال الشاعر:

تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي أَهٰذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي

لهذا ذكر شيخ الإسلام في قاعدة له في معنىٰ الدين: أن أصل الدين في اللغة – وهذا الكلام صحيح موافق لأقوال علماء العربية – العادة المتكررة، وسُمي ما يجعله المرء في قلبه من العقائد، أو ما يجعله المرء علىٰ لسانه من الأقوال، أو ما يعمله بجوارحه من العبادات، سمي مجموع هذا دينًا ؛ لأنه يُفعل

علىٰ وجه العادة والتكرر ؛ لأنه دين يتكرر بالفعل. هذا أحد الإطلاقات، فالدين يراد به ما يلتزمه المرء من الاعتقاد، أو القول، أو العمل ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

أيضا يُطلق الدين ويُراد به الجزاء، وذلك في آيات، منها قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾ [النور:٢٥]، يعني جزاءهم الحق، فالدين يأتي في القرآن بمعنىٰ الجزاء في آيات كثيرة، وهناك صلة بين معناه بمعنىٰ الجزاء والأصل اللغوي الذي هو العادة أو الشيء المتكرر، ووجه الصلة أن الجزاء يتكرر بتكرر العمل، ويطلق علىٰ الجزاء المتكرر دينًا إذا كان أصله الذي يجازىٰ عليه متكررًا متنوعًا.

ويعني ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ يوم الجزاء والحساب، ويوم الدين من أسماء يوم القيامة، وليوم القيامة أسماء كثيرة في القرآن معلومة، والمقصود بيوم الدين يوم يقوم الناس لرب العالمين، مع أن يوم القيامة يشمل ما بين النفخة الأولىٰ في الصُّور إلىٰ النفخة الثانية وما بعدها إلىٰ أن يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، فكل ما يحدث إذ ذاك فالمالك له الله جل جلاله؛ كما قال سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر].

وإذا كان كذلك فقوله هنا: ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ إنما يعني به يوم الجزاء، وهو يوم يقوم الناس لرب العالمين، يعني حين يصِلون إلىٰ أرض المحشر، فهناك المُلك يومئذ لله وحده لا شريك له.

وما قبل ذلك أيضا لا شك أن الملك لله، فما فائدة التخصيص؟

الله – جل جلاله – مالك للدنيا وللآخرة، مالك لما كان قبل النفخة الأولىٰ وما بعدها، ولما قبل النفخة الثانية وما بعدها، فما فائدة التخصيص بيوم الدين؟

فائدة التخصيص أن يوم الدين هو يوم المجازاة، يوم الحساب، يوم يوفّىٰ كل عامل عمله، يوم توفّىٰ كل نفس ما عملت، وهذا تتعلق به النفوس.

وإذا كان كذلك فإن من كان مالكا لليوم الذي يوفىٰ فيه العامل عمله يحدث فيه تعلقا به من جهة النظر إلىٰ ذلك اليوم، فيكون قد جمع في قلبه بين نظر في الدنيا ومحبته في الدنيا وعبادته في الدنيا، وبين تعلق قلبه في الآخرة، فهو إذا كرر هٰذا نظر إلىٰ هٰذا المعنىٰ.

أيضا من أوجه التخصيص أن قوله: ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ ﴾ في مقام أن يَحضر في قلب العبد المؤمن وهو

يتلو هذه الآية ما يحصل في يوم الدين من جميع الأحوال؛ لأنه قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾، واليوم يحصل فيه جميع تلك الأمور؛ من وصول الناس إلىٰ المحشر، بل وما قبل ذلك من قيامهم من قبورهم، بل وما قبل ذلك إلىٰ أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فكأنّ المتدبر المتأمل إذا قرأ ذلك استحضر المشهد بتفاصيله أمامه ؛ وهذا يبعث علىٰ خوف مجدد غير الخوف الذي استُفيد من قوله: ﴿مَٰلِكِ﴾، ولا شك.

وهذا يفيدنا في تفسير قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٤﴾ وهذا هو الغرض، وهو الذي بفهمه وبتدبره يحصل المقصود ؛ لأن الرسل إنما بُعثت لترشد العباد لعبادة الله وحده دونما سواه.

فهنا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فأولًا أثنىٰ علىٰ الله جل وعلا بأنواع الثناء، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وهذا أول فعل: نعبد إياك، وأول أمر في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]. والعبادة هي المقصودة في هذا المقام؛ لأن الابتلاء إنما حصل في عبادة الله جل وعلا؛ هل يعبد العباد ربهم وحده دونما سواه أو يشركون به؟

فهنا في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بعد ما سبق، لم؟

قال أهل العلم: لأن العبادة لها أركان ثلاثة، بمجيئها مجتمعة تكون العبادة موجودة شرعًا، وتلكم الأركان الثلاثة هي: الحب، والخوف، والرجاء.

فالعبادة إنما تقوم إذا كان القلب محبًّا راجيًا خائفًا، أرأيت المصلِّي مثلًا إذا صلّىٰ فإنه يصلي وهو يلحظ محبته لربه جل وعلا، وهو يلحظ رجاءه في ربِّه جل وعلا أن يتقبل منه وأن يثيبه، وهو يلحظ الخوْف منه جل وعلا أن يعاقبه لو ترك الصلاة أو فرّط فيها في يوم الدين.

فالعبادة إنما تقوم علىٰ هذه الثلاثة، لا بد من وجود الثلاثة: أصل الحب، أصل الرجاء، أصل الخوف. فلو لم يوجد واحد منها صارت العبادة غير موجودة شرعًا، وإن وُجدت واقعًا لكنها شرعًا ليست موجودة.

هنا ننبه: لما قال هنا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١﴾ ذكرنا أنه فتح باب المحبة، ولما قالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ فتح باب الرجاء، ولما قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ فتح باب الخوف، فالعبد

يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إن كان يعقل وقد قام في قلبه ما قام من المحبة والخوف والرجاء، فالله – جل جلاله – من رحمته بالعبد أنه وجّهه لقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، وهو يخاطب ربه جل وعلا بعد أن ذكر الآيات التي تبعث في قلبه المحبة والرجاء والخوف، حتىٰ يكون قوله ذلك آتيًا علىٰ وفق الشرع.

قال العلماء في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾: (إياك) مفعول به مقدم، وهو ضمير منفصل قُدم، والأصل أن المفعول به يتأخر عن الفعل، وهنا قدمه علىٰ الفعل، وفي تقديمه علىٰ الفعل فوائد ؛ منها: الحصر والقصر. وهذا مقرر في علم المعاني من علوم البلاغة (مبحث الحصر والقصر)، وكذلك في أصول الفقه في (مبحث مفهوم المخالفة).

قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ معناه: أقصر وأحصر عبادتي؛ بل نقصر ونحصر عبادتنا فيك. قال بعض أهل العلم: يُفيد التخصيص. وهو المعنىٰ نفسُه، يعني نجعل عبادتنا مختصّة بك وحدك.

فقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فيه توحيد العبادة بظُهور.

ما هي العبادة؟ العبادة في اللغة: الخضوع والذل، أو الذل وحده ؛ ولهذا قالوا: بعير مُعَبَّد إذا طُلِي بالقَطِرَان وأُفْرِدَ؛ فصار خاضعًا ذليلًا بانفراده.

ومنه قول طَرَفَةَ في مُعلَّقته:

إلىٰ أنْ تَحامَتني العَشيرةُ كلُّها وأُفرِدتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وقيل أيضا للطريق، كما هو مشهور: طريق مُعَبَّد ؛ إذا ذُلل بكثرة وطء الأقدام عليه ووطء الحوافر والمسير عليه.

ومنه أيضًا قول طرفة في المعلَّقة نفسها في وصف نوق:

تُباري عِتاقًا ناجياتٍ وأَتْبَعَتْ وَظيفًا وَظيفًا فَوقَ مَورٍ مُعبَّدِ

المور: الطريق. ومعبد: أي من كثرة ما وطئ.

قال العلماء: العبادة في الشرع: غاية الحب مع غاية الذل، كما ذكر ابن القيم في «النونية»، وذكره غيره أيضا.

ويعرف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ – كما هو مشهور – العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

أما الأصوليون فيعرفون العبادة بأنها: ما أُمر به من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاءٍ عقلي.

وكل هذه التعريفات صحيحة تصدق علىٰ العبادة؛ فقولـه هنـا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني نُفرِدك بالعبادة دونما سواك، فلا نعبد إلا أنت، وهٰذا فيه توحيد العبادة كما هو ظاهر.

إذن فالمشرك الذي أشرك بالله وعبد معه غيره إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يكون صادقًا أو كاذبًا؟ يكون كاذبًا.

ولهذا الكفار والمشركون هم أعظم الكذبة علىٰ الله جل وعلا وأعظم الكذبة علىٰ أنفسهم، فالله تعالىٰ يقول في سورة الأنعام: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الأنعام:٢٤]، فهو يشرك بالله ومع ذلك يقول في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. أنت دعوت غير الله، وذبحت لغير الله، واستغثت بغير الله، ونحو ذلك، فكيف لا تعقل معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟

وهذا من أعظم البلاء أن يكون الإلف للقرآن أو للفاتحة أو لكلمة التوحيد أو للشهادة بأن محمدا رسول الله، يمنع من تعقُّل معناها، حتىٰ غدا من يتكلم باللسان العربي لا يعقل معاني ما يتكلم به أو ما يسمع من القرآن.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إفراد الله جل وعلا بالألوهية، ثم قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا فيه إفراده جل وعلا بالاستعانة، وهنا قال العلماء في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أُخّرت الاستعانة مع أنّ طلب العون يكون من جهة الرب، فرجع إلىٰ معنىٰ الربوبية، فهنا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝١﴾ لمناسبة عظيمة وغرض عظيم؛ وذلك أن العبد الموحد الذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا يمكنه أن يوحد إلا بأن يكون مستعينًا بالله جل وعلا وحده في ذلك، وإلا فإن الشياطين تكتنف وتستحوذ علىٰ البشر، فهنا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝١﴾ في آية واحدة معطوفة بالواو، يعني: إياك نعبد فلا نعبد إلا أنت وحدك دونما سواك، وإياك وحدك نستعين في أمورنا كلها، وأخصُّها عبادتك وحدك دونما سواك.

وهنا يستحضر الموحِّد عِظَم حاجته إلىٰ ربه جل وعلا في أن يثبّته علىٰ توحيده قولًا وعملًا؛ لأنه لا يمكن أن يثبت علىٰ توحيد الله إلا بعون من الله، فيذهب مع قول العبد في صلاته: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كلُّ إعجاب بالنفس، وتذهب كل ثقة بالنفس، ويكون العبد مخليًا نفسه وقلبه مع ربه جل وعلا، وأنه لا

غنىً له عن الله جل وعلا طرفة عين. نعم إن إفراد الله جل وعلا بالعبادة، وإفراده جل وعلا في طلب الاستعانة في جميع الأمور؛ هذا سر أعظم ومطلوب أعظم، ومَن تحقق له تحقق له الخير الأعظم.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾ أي: اهدنا يا الله، اهدِ: دعاء، وهو فعل أمر، وفعل الأمر – كما هو متقرر – إن كان لمن هو أرفع من الآمر فإنه يكون دعاء، وإذا كان لقرين فإنه التماس، وإذا كان لمن هو دونه صار أمرًا.

فالله جل وعلا من رحمته بالعبد أن أنزل هذه الآيات لكي ندعو بها ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾.

والهداية هنا مطلوبة من الله جل وعلا، وحقيقة الهداية أنها الدلالة والإرشاد، ففي اللغة: هدىٰ يعني دل وأرشد.

والهداية في نصوص القرآن أربعة أنواع:

النوع الأول: هداية غريزية، بمعنىٰ هداية الله جل وعلا الخلق لما يصلح لهم غريزة، وهذا كقوله جل وعلا: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه].

النوع الثاني: الهداية بمعنىٰ الدلالة والإرشاد لما يصلح في أمر الدين. فالأولىٰ غريزية فيما يصلح في أمر الدنيا، وهذه دلالة وإرشاد لما يصلح في أمر الدين؛ كما في قوله جل وعلا لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشورىٰ]، وكقوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[الرعد] ونحو ذلك. وهذه الهداية يملكها الرسل، ويملكها العلماء، ويملكها الدعاة.

النوع الثالث: الهداية التي هي **التوفيق والإرشاد**، وهي نتيجة الهداية بمعنىٰ الدلالة والإرشاد التي سبقت في النوع الثاني، فهل يقبل العبد هداية الدلالة والإرشاد أم لا يقبل؟ يحتاج في القبول إلىٰ توفيق، ولهذا قيل: هداية توفيق؛ وهذه كما في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[القصص:٥٦] يعني: لا توفِّق مَن أحببتَ ولكن الله يوفق من يشاء.

النوع الرابع: وهو أعظمها وأجلها وغاية جميع أنواع الهدايات، وهو الهداية إلىٰ طريق الجنة، والهداية إلىٰ طريق النار:

– هداية المؤمنين إلىٰ طريق الجنة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد].

فهذه الهداية ليست هداية الدنيا، وإنما هي هداية الآخرة، قال أهل التفسير: سيهديهم إلىٰ طريق الجنة.. نسأل الله الكريم من فضله!

- وكذلك الهداية إلىٰ طريق النار ؛ قال جل وعلا: ﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] والعياذ بالله! وقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٤١] نسأل الله العافية!

فهذه أربعة أنواع، فقول القائل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾ يشمل الأنواع الثلاثة: الثاني والثالث والرابع، ولكلٍّ تفسير:

أما الثاني وهو هداية الدلالة والإرشاد، فالعبد إنما قال ذلك بعد أن هُدي، بمعنىٰ أنه بُين له وأرشد ودُل علىٰ الإسلام، فالمصلي يتلو هذه الآية وهو من أهل الإسلام؛ لكن يدخل في دعوة الداعي في قوله لربه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾ معنىٰ دلنا وأرشدنا إلىٰ الصراط المستقيم. كيف يكون ذلك؟ لأن أمور الصراط المستقيم وأفراده وأنواعه كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وهذه يتنافس في معرفتها العلماء. ويدخل في هذا كل عالم في مسألة قد دُل وأرشد إلىٰ هذه المسألة هي من مسائل الشرع الذي هو الصراط المستقيم.

فقول القائل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾ معناه أنه يطلب من ربه أن يبين له ويدله علىٰ أنواع وأمور الصراط ؛ بأنواعها وأفرادها وتعددها ؛ ولهذا يقول الداعي في دعائه: «اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه».

﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾:

أمور الصراط المستقيم متعددة: مستحبات، مكروهات، واجبات بأنواعها، محرمات، أنواع العلم بالله، أنواع العلم بأحكامه، أنواع العلم بآثار أسمائه وصفاته في ملكوته، أمور كثيرة لا يمكن أن يحصيها محصٍ؛ فالسائل في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ يدعو ربه أن يبين له ذلك، وهذه حاجة من أعظم الحاجات، إن أعظم حاجة نحتاجها هي أن يبين لنا ذلك؛ لكن مع ذلك نسأل الله أن يهدينا بالمعنىٰ الثاني الذي هو هداية التوفيق والإلهام ؛ لأن الدلالة والإرشاد بدون توفيق ولا إلهام ولا تسديد من الله حجة علىٰ العبد، وليست حجة له. فقول القائل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٥﴾ ﴾ بعد أن سأل الله الدلالة والإرشاد هو سؤال الله أن يوفقه لجميع أفراد الصراط المستقيم. وسيأتي تفسير الصراط إن شاء الله تعالىٰ.

كذلك المعنىٰ الأخير الرابع من أنواع الهداية في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ﴾ فالصراط المستقيم صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، الصراط في الآخرة له وصفٌ: منصوب علىٰ متن جهنم، أحدّ من السيف وأدق من الشعر، علىٰ جنباته كلاليب كأمثال شوك السَّعدان، ونحو ذلك ممّا جاء وصفه في السنة. والله – جل جلاله – قال في سورة مريم: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، ودون الصراط ودون الجسر ظُلمة، ولا يبصر طريق الصراط إلا من أُعطي النور الذي يبصر به؛ كما قال النبي – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الصحيح: «...هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجَسْرِ » أي: دون الصراط. أما الكفار فهم في ظلمة لا يدرون أين الصراط، وجهنم يُجاء بها ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر: ٢٣] لها سبعون ألف زمام تُسحب وينصب عليها الصراط وتجعل حولها الظلمة، فيأتي الكفار يتهافتون فيها تهافت الفراش.

وهذا الصراط الذي هو الطريق من العَرَصات إلىٰ الجنة، منصوب علىٰ متن جهنم، ومن وصفه: أنه أدق من الشعر وأحد من السيف ودونه الظلمة، فمن الذي يُهدىٰ؟ ولهذا لعظم هذا الأمر يقول الأنبياء وهم واقفون قبل الصراط: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، فالأمر شديد.

فيستحضر الداعي ربه جل وعلا بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ﴾ ذلك الصراط، ثم صراط في الدنيا وهو ينتقل بقلبه إلىٰ صراط الآخرة، يسأل ربه أن يهديه ويدله ويرشده عن ذاك الصراط، فيبصره ويمضي فيه علىٰ ما قدر الله جل وعلا له من السرعة والمضاء.

وهذه أنواع من الدعاء لو حصلت للعبد لكفىٰ بها. ولهذا يقول العلماء: إن أحوج سؤالٍ سأله العبد ربه جل وعلا هو هذا السؤال ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ﴾.

ومن رحمة الله جل وعلا بعباده المؤمنين أنه جعل لهم هذه السورة التي فيها هذا السؤال العظيم الذي لا يعرف عظمه وقدره وحاجة العبد إليه، بل وحاجة العباد إليه ؛ إلا من وُفق، وقليلٌ ما هم.

والمراد بالصراط في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ﴾ صراط الدنيا وصراط الآخرة، أما صراط الآخرة فقد ذكرتُ لكم معناه، وأما صراط الدنيا فقد اختلفت أقوال المفسرين من السلف في معناه ؛ فقال بعضهم: الصراط المستقيم هو القرآن، وقال آخرون: الصراط المستقيم هو الإسلام، وقال آخرون: الصراط المستقيم السنّة، وقال آخرون: الصراط المستقيم اتباع النبي ﷺ. قال العلماء كابن جرير وابن كثير وشيخ الإسلام وجماعة: كل هذه الأقوال مؤداها واحد؛ لأن من التزم بالقرآن التزم بالإسلام والتزم

بالسنة واتبع النبي ﷺ؛ فالعبد يسأل ربه أن يهديه الصراط المستقيم في الدنيا بأن يهديه إلىٰ الإسلام، يهديه إلىٰ القرآن، يهديه إلىٰ اتباع النبي ﷺ.

وهاهنا سؤال معروف عند أهل التفسير، وهو أن العبد المصلِّي قد هُدي إلىٰ الإسلام، هدي إلىٰ القرآن، فكيف يسأل هذا السؤال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ ﴾ بمعنىٰ أرشدنا ودُلنا علىٰ الإسلام، أرشدنا ودلنا علىٰ القرآن، أرشدنا ودلنا علىٰ السنة، أرشدنا ودلنا علىٰ اتباع النبي ﷺ، فكيف يكون وجه السؤال هاهنا؟

قال العلماء: إن هٰذا السؤال سؤال لطلب الثبات علىٰ الصراط ؛ لأن المصلي قد حقق الإسلام، فهو يسأل أن يثبت عليه، وهذا معروف في الأوامر ؛ فمن أُمر بشيء قد تحقّق به فإن معنىٰ الأمر: اثبت عليه ؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:١]، أي اثبت علىٰ تقوىٰ الله جل وعلا، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ [النساء: ١٣٦]، يعني اثبتوا علىٰ الإيمان ؛ هكذا قال كثيرون من أهل العلم.

وفي هذا الجواب نظر، والصواب والأصح: الثاني: أن الصراط المستقيم وإن كان الإسلام أو القرآن أو السنة أو اتباع النبي ﷺ فإن له تفاصيل، وذلك أن الصراط المستقيم واسع وثم فيه أمور وتفاصيل، فالإسلام ليس شيئا واحدًا، وإنما هو مبني علىٰ أمور، مبني علىٰ أركان خمسة، وله شعب، كذلك الإيمان مبني علىٰ أركان ستة وله شعب: شعب عقدية، وشعب قولية، وشعب عمليه. وهكذا الإحسان ركن واحد، وأيضًا هذا الركن له شعب، وهكذا... فأمور الإسلام متعددة، فآيات الله جل وعلا في القرآن التي فيها الإخبار متعددة ؛ أخبر الله بأشياء كثيرة في القرآن، الأوامر متعددة، النواهي متعددة، فحين يسأل العبد الله فإنه يسأله جل وعلا أن يدله – كما ذكرت لك آنفًا – وأن يوفقه لهذه التفاصيل جميعا، وهو سؤال بجميع ما يدخل في أمور الإسلام، ولهذا ليس ثم أحد مستغنٍ عن هذا السؤال. العالم؛ بل الأنبياء يحتاجون إلىٰ هذا السؤال، فالنبي ﷺ كان يتلو ذلك وهو محتاج إليه، الصحابة يتلون ذلك وهم محتاجون إليه، كل واحد يتلو هذه الآية ويسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم بهذا المعنىٰ ؛ بتفاصيله وأنواعه وأفراده، وكل واحد بحاجة إلىٰ ذلك بحسب حاله.

فإذا تلا التالي هذه الآية فلا يقول: أنا من أهل الهداية ؛ فكيف أسأل الله إياها؟! فيُذكَّر ويقال له: لا، أنت في أعظم الاحتياج والفقر إلىٰ أن تسأل ربك أن يدلك علىٰ أمور هذا الصراط المتنوع، وأن يعلمك

ويفهمك ذلك، ثم يوفقك إلىٰ هذا في الدنيا بالتزامه، ثم يعطيك جزاءه في الآخرة بالجواز علىٰ الصراط.

فكل مسألة من مسائل الصراط نحن في حاجة إليها، يوضح ذلك أن الصراط في الآخرة لا يمضي عليه إلا من قوي يقينه، فلا يمضي عليه بسرعة ومضاء سريع إلا من قوي، وهكذا الناس يخِفون في سرعتهم بقدر قوة يقينهم وثباتهم ومعرفتهم بهذا الصراط في الدنيا، فبقدر معرفة العبد بالصراط في الدنيا وثباته عليه والتزامه به يكون علىٰ ذلك الصراط شأنه وحاله يوم القيامة.

ولهٰذا قال العلماء: إن ثم في الدنيا كلاليب تعلق بالقلب، وهي كلاليب الشهوات والشبهات، كما ذكر ذلك ابن القيم في أول «المدارج» قال:

(ولينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم ؛ فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[فصلت]).

وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام: « فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

فبقدر تعلق الكلاليب في الدنيا – وهي كلاليب الشبهات والشهوات – يكون ذلك، إن لم يغفر الله ويتجاوز عن عبده. نسأل الله جل وعلا السلامة والعافية.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الدرس الثالث

الحمد لله رب العالمين، أصدق الحمد وأعظمه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أسأل الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم، وأن يجعلنا من الذين أنعم الله عليهم، وأن يحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين،

اللّٰهمَّ لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، ومن علينا ولا تكلنا لأنفسنا في أي أمر من المور يا أكرم الأكرمين، اللّٰهمَّ صحح مقالنا وصحح فعالنا وصحح نياتنا، واجعل كل ذلك خالصا لوجهك علىٰ سنة نبيك يا أكرم الأكرمين.

أما بعد؛ فقد وقفنا عند قوله جل وعلا في سورة الفاتحة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ ﴾ وبينا معنىٰ الهداية وكون هٰذه الهداية للصراط المستقيم، وأن قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ فيه تنبيه، لأن هٰذا القارئ يقرأ هذه الآية ومعه غيره من إخوانه المؤمنين، وفي هٰذا تنبيه علىٰ أن سورة الفاتحة إذ كانت من القراءات الواجبة في الصلاة؛ فإن الصلاة التي تتلىٰ فيها هذه الفاتحة واجبة، أعني صلاة الفرض، وهي صلاة الجماعة؛ لأنه قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ فهذا تنبيه علىٰ أن ذلك إنما يقع لمن كان معه غيره، وأما صلاة النفل فهي تبعٌ لذلك، وقد تقع جماعة، وقد لا يكون ذلك، والحكم إذا دار بين الفرض والنفل فإنه يُغلَّب الفرض في مسائل كثيرة، كما هو معلوم.

قوله هنا ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ ﴾ الصراط في اللغة – كما أجمع عليه اللغويون، وحكىٰ عليه الإجماع ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ – **الطريق الواضح المستقيم الذي يجمع كثرة من السالكين فيه.** واستُشهد في ذلك بقول الشاعر:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيم

وهذا – كما ذكر العلماء – جاء مفصلا بالأدلة الشرعية في الكتاب والسنة، أعني معنىٰ الصراط، وقد جمع ذلك ابن القيم وغيره، حيث قالوا: إن الصراط لا يسمىٰ صراطا مستقيما حتىٰ يجمع بين خصال:

منها: أن يكون واحدًا في إيصاله للمقصود.

والثاني: أن يكون أقصر طريق وأصح طريق للإيصال للمقصود.

واستَدل لذلك بلفظ المستقيم ؛ فإن المستقيم هو خلاف المائل، والمائل أطول من المستقيم، فجاء النعت للصراط بأنه أقصر طريق يوصل إلىٰ المقصود، ومعنىٰ ذلك أن غيره من الطرق إنما هي سُبل منحرفة معوجة لا توصل إلىٰ المقصود علىٰ الوجه الذي رضيه من نصب هٰذا الصراط.

وكذلك: أنه لا يسمَّىٰ صراطًا حتىٰ يكون واسعًا، يكثر سالكوه، وهذا – لا شك – فيه تنبيهات كثيرة علىٰ أن هذا الصراط كثر سالكوه، وأن الذي يسلكه وإن كان في زمنه لا يرىٰ سالكا غيره، فإنه ليس وحده بالنظر إلىٰ كثرة من سلكه، ولهذا قال بعدها: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، فهو صراط كثر السالكون فيه، فإن هذا الصراط واسع قد سلكه فِئام كثيرة من أولياء الله ومن المطيعين له ولرسله.

كذلك قال جل وعلا في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] يعني إمامًا مُقتدًىٰ به في الخير، وقال إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالىٰ: (لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين).

فلو لم يجد المؤمن الذي يدعو بهذا الدعاء: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلا أن يكون معه أنبياء الله ورسل الله – عليهم صلوات الله وسلامه – لكفىٰ بذلك يقينًا له، ولكفىٰ بذلك إيناسًا له.

فهذه من صفات الصراط المستقيم.

والصراط ينسب إلىٰ الله جل وعلا تارَةً، كما في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦ ﴾[هود]، وكما في قوله: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾[الشورىٰ:٥٣]، وينسب أو يضاف تارة إلىٰ السالكين فيه ؛ كما قال هنا: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝٦ ﴾...

فالإضافة الأولىٰ إنما هي بالنظر إلىٰ الذي نصبه ووضعه، والإضافة الثانية هي بالنظر إلىٰ من سلكه وجعله سبيلًا له، وكفىٰ بهذا طمأنينة للعبد المؤمن؛ لأنه إذا نظر إلىٰ أن هذا الصراط الذي نصبه وجعله طريقًا موصلًا للحق، موصلًا للمراد ؛ هو الله جل وعلا، وأن الله جل وعلا عليه، وأن السالكين فيه هم صفوة خلق الله؛ كان ذلك في قلبه أعظم ما يكون من إحداث اليقين والطمأنينة. وهٰذا كما ترىٰ فيه أنواع من الفوائد ولا شك.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ٦ ﴾ وهذا الصراط عُرف في الآية الأولىٰ بقوله: ﴿ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ٥ ﴾، ونُعت بأنه مستقيم، والتعريف في قوله: ﴿ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ٥ ﴾ هذا إما للعهد، يعني الصراط المعهود، وإما أن يكون التعريف لبيان حقيقته، وكلاهما موجود في اللغة...

ثم أكد ذلك وعرفه أكثر بعد التعريف السابق بالإضافة التي تقتضي التعريف والتخصيص، كما هو مقرر في موضعه في علوم العربية، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ٦ ﴾ فالله جل وعلا ذكر أنه الصراط، وأنه المستقيم، وعرّفه أكثر بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ٦ ﴾، وهذا له فائدة، وهي أن الصراط من حيث معرفته علىٰ حقيقته قد يشتبه علىٰ كثير من الخلق: أي الصراط هو الحق؟ إذا نظره من جهة حقيقته، فإذا اشتبه عليه فثم تعريف آخر عظيم يدله علىٰ هذا الصراط، وهو أنه الصراط والسبيل الذي سلكه من أنعم الله عليهم، وهذا لا يقع معه الاشتباه ؛ لأن من الناس من لا يحسن معرفة حقيقة الشيء من حيث هو ؛ لأنه يحتاج إلىٰ علم وإلىٰ نظر واستدلال، ولكن إذا نظر إليه من جهة من سلكه فإنه قع به تعريف أخص، وهذا من فوائد هذا التعريف بعد التعريف، فالله – جل وعلا– قال في الآية: ﴿ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ٥ ﴾ وهذا تعريف له بقوله: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ يعني أنه معروف معهود وصفه، معهودة حقيقته.

وقال بعدها: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ٦ ﴾ ؛ فإذا لم يصل العبد ولم يعرف حقيقته التي قال فيها: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ﴾ فإن حقيقته تُعرف بالسالك فيه، فمَن هو السالك لهذا الصراط الذي إذا وقع الاشتباه دلّك علىٰ هذا الصراط الواحد الذي لا يتعدد؟

قال سبحانه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ٦ ﴾، والذين أنعم الله عليهم هم أهل تقواه، أهل تحقيق الإسلام له؛ لأن الله جل وعلا بيّن في سورة البقرة أن كثيرين ادعوا أنهم سيدخلون الجنة من سائر الفرق والمِلل والنِّحل، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدخُلَ ٱلجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَو نَصَٰرَىٰۗ تِلكَ أَمَانِيُّهُم ۗ قُل هَاتُواْ بُرهَٰنَكُم إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ١١١ ﴾ [البقرة]، ثم بيّن البرهان الذي يستحقه من يدخل الجنة، وهي نهاية الصراط؛ الجنة ؛ فهي نهاية الصراط، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وساروا علىٰ هذا الصراط ليصلوا إليها بعد رضا الله جل وعلا، وبعد رحمته، فقال بعدها: ﴿ قُل هَاتُواْ بُرهَٰنَكُم إِن

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ﴾ [البقرة] يعني بلىٰ سيدخل الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] أي من جمع بين هذين الوصفين ؛ تحقيق الإسلام، وتحقيق الإحسان في العمل والمقال والاعتقاد.

بين جل وعلا أيضًا في سورة النساء هؤلاء الذين أَنعمَ عليهم علىٰ وجه التعين، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء] فبين أن الذين أنعم عليهم، والذين نسب إليهم هذا الصراط؛ لأنهم هم الذين سلكوه علىٰ نور من ربهم، وعلىٰ برهان صحيح من ربهم، هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم، فإن كان العبد قد رأىٰ النبيين فهذا صراطهم، وإن كان رأىٰ الشهداء الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا في سبيل الله، فهذا هو صراطهم، أو رأىٰ الصديقين الذين صدقوا، وجاءوا بالصدق، وصدقوا به، قالوا الصدق في قولهم واعتقادهم؛ لم يعتقدوا خلاف الواقع ولم يقولوا خلاف الواقع، ولم يعملوا بخلاف ما يجب وهو الواقع، فإن هؤلاء هم الصديقون، إذا لم تر أولئك ولم تر أولئك فابحث عن الصديقين، فإن لم تر أولئك فستجد الصالحين، لا يخلو منهم زمان، وهم الذين قام بهم الصلاح ؛ وجماعه صلاح القلب بما قام به من الاعتقادات، وصلاح القول بما قام باللسان من أنواع الكلام الطيب، وصلاح العمل الذي هو متابعة السنة.

وهذا يوضح لك هذا الصراط بحيث إنه لا يقع فيه اشتباه أبدًا.

فمن هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾؟ هم الذين أطاعوا الله جل وعلا واستجابوا له ولرسله من أتباع الرسل، ومقدم أولئك وأئمتهم رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام.

قال الله جل وعلا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾ هذا فيه إسناد الإنعام إلىٰ الله، وفيه تنبيه ؛ فإنهم سلكوا هذا الصراط، ونسب الله جل وعلا بل أضاف الصراط إليه بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾، ومع أنه أضاف الصراط إليهم في هذا الموضع لكنه نبه علىٰ أن سلوكهم لهذا الصراط إنما هو من جهة إنعام الله عليهم، لا من جهة أنفسهم فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾، وهذا فيه إبعادٌ للقلب عن الغرور بالنفس وعن الثقة بها وعن اعتقاد العبد أنه وصل إلىٰ الاستقامة، أو ثبت

عليها، أو سيثبت عليها من طريق جهده واجتهاده ونفسه؛ بل إنه لا غنىٰ للعبد عن الله طرفة عين، فالسالك لهذا الصراط ما سلكه إلا بإنعام الله عليه، فهو جل وعلا الذي هدىٰ الصراط المستقيم، وهو الذي دل عليه، وهو الذي أنعم به سلوكًا، يعني وفّق إليه، فمبتدأ الأمر من الله ومنتهاه علىٰ الله وإلىٰ الله، والله جل وعلا بعد ذلك يثيب السائرين علىٰ الصّراط، وهذا أعظم ما يكون من الرحمة والكرم والمنة والإحسان والفضل.

يرشد إليه، ويوفق إليه، ويهدي إليه، ثم بعد ذلك يثيب العبد، وهو المنعم المتفضل، وهذا –لا شك – يجعل القلب في محبة بعد المحبة، وفي تجرد بعد التجرد، وفي حسن توكل علىٰ الله وتفويض الأمر إليه.

فالفاتحة هذه السورة العظيمة فيها أصول العقائد، فيها أصول السلوك، فيها أصول الأحكام، ولهذا صارت وسميت أم القرآن ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر]، هي القرآن العظيم، وهي السبع المثاني، وهي أم الكتاب ؛ لما اشتملت عليه من أصول عظام.

قال هنا: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ ﴾ فهؤلاء صراطهم واحد، وأما غيرهم فهم علىٰ سُبل كما جاء في القرآن أو كما يعبر بعضهم: علىٰ صُرطٍ مختلفة لكنها صُرط لا توصف بالاستقامة، أو هي سُبُل ليست بصرط أصلا، قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]، فالصراط صراط الله، وغيرُ هذا الصراطِ سُبُلٌ، علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إلىٰ ذلك السبيل، لا حصر لها ولا عدد، تتنوع وتتفرّع وتتشعب باختلاف الأزمنة والأمكنة، ولكن صراط الله واحد، أضافه إلىٰ نفسه لتعرفه، وأضافه إلىٰ أوليائه السالكين فيه لتعرفه.

ثم بين أيضًا ما به يُعرف هذا الصراط، وهو أنه مخالف لطرق الهالكين، فقال سبحانه: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾؛ يعني غير صراط المغضوب عليهم، كما هو الراجح في هذا الموضع عند جمعٍ من أهل التفسير.

وقال بعض العلماء: إن (غير) هنا استثناء، مثل (حاشا) وأشباهها، تقول: دخل الرجال غير محمد، يعني إلا محمدًا، فقالوا: إن قوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هٰذا استثناء عما سبق، يعني اهدنا الصراط

المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم، لكن صراط – استثناء منقطع – المغضوب عليهم والضالين لا نريده، لا نبغيه، لا نختاره.

وهٰذا فيه نظر من جهة العربية، وفيه نظر أيضا من جهة المعنىٰ المتقرر هنا، والأنسب هو الأول كما قرره المحققون، وهو أن (غير) نعت لما قبلها، فمعنىٰ ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾: غير صراط المغضوب عليهم.

وهنا علىٰ هذا التقدير هل يُجعل للمغضوب عليهم صراط؟ هل يُجعل لهم صراط أم أنها سبلًا لهم ؟

هذا علىٰ الخلاف: هل الصراط يقع علىٰ المحمود من السبيل أم يقع علىٰ المحمود والمذموم من السبيل؟ خلاف لغوي وكذلك اصطلاحي أو استعمالي.

وعلىٰ هذا فإننا نقول: إن المعنىٰ: غير صراط إذا كان الصراط للمحمود والمذموم، أو يضاف إلىٰ المعنىٰ: غير سبيل المغضوب عليهم ولا الضالين؛ لأن اللفظ إذا حُذف فإنه يصح أن يُقدر مكانه لفظه إن صلح أو معناه إن لم يصلح اللفظ، وهذه قاعدة يُستفاد منها في المقدَّرات في التفسير وفي غيره.

والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارىٰ، صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما ورد في الترمذي وغيره؛ بل حُكي اتفاق المفسرين علىٰ أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارىٰ.

أما قولنا: المغضوب عليهم هم اليهود لأن الله جل وعلا وصفهم في القرآن بأنه غضب عليهم في غير ما آية؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة:٩٠]، وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:٦] ونحو ذلك.

وهم مع كونهم مغضوبًا عليهم هم أيضًا ضالون، فلم وُصف النصارىٰ بالضلال مع أنهم مغضوب عليهم أيضًا، ووُصف اليهود بالغضب مع أنهم ضالون أيضًا؟

قال العلماء: لأن أخص صفات اليهود أنهم مغضوب عليهم، ولأن أخص صفات النصارىٰ أنهم ضالون، فوُصف أولئك وهؤلاء بأخص الصفات التي تضاف لهم.. نعم، اليهود ضالون، ولكن أخص من ضلالهم أنهم مغضوب عليهم، ولهذا ذكر الله جل وعلا في كتابه الغضب عليهم في غير ما آية.

والنصارىٰ ضالون كما قال جل وعلا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ

قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة].

فالله جل وعلا وصف النصارىٰ بأنهم أهل ضلال لأنهم أخص به.

قال العلماء: إن (المغضوب) من حيث اللفظ اسم مفعول، وقد جاءت قبله (أل)، والمتقرر أن (أل) تكون اسمًا موصولًا إذا جاءت قبل اسم المفعول، كما قال ابن مالك في الألفية:

وَصِفَةٌ صَرِيْحَةٌ صِلَةَ أَلْ وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

(وصفة صريحة): أي اسم الفاعل والمفعول.

فهنا ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ كأنه قال: غير الذين غُضب عليهم. وهذا يعني أن أولئك الذين غُضب عليهم كثير ؛ لأنه عبر بالاسم الموصول الذي هو (أل). أو تكون (أل) هنا للعهد مع كونها موصولة، يعني تفيد التعريف علىٰ اختيار بعض النُّحاه.

المقصود أنه غُضب علىٰ اليهود، وسبب الغضب – كما ذكر العلماء – أنهم علموا فخالفوا، علموا علما بينًا وأقيمت عليهم الحجج المتنوعة وفهموا ذلك واستبانوه ووضح لهم، ولكنهم خالفوا عن يقين وعن معرفة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة]، حرَّموا الحلال وهم يعلمون أنه حلال، وأحلوا الحرام وهم يعلمون أنه حرام، غيروا حدود الله وهم يعلمون أنها حدود الله، فوُصفوا بأنهم مغضوب عليهم.

والغضب جاء علىٰ اليهود جميعًا، مع أن الذي فعل تلك الأفعال إنما هم علماؤهم، وهذا يدل – كما ذكره طائفة من أهل العلم – علىٰ أن العامة تَبَعٌ لعلمائهم في الحكم، وهذه مسألة مهمة.

إذن قوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني غير الذين غُضب عليهم، وسبب الغضب أنهم علموا فخالفوا.

قال عن النصارىٰ: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ يعني: ولا صراط الضالين، و(الضالين): جمع تصحيح للضال، والضال اسم فاعل من الضلال، أو اسم من قام به الضلال.

والضلال أصله في اللغة النسيان، قال جل وعلا: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[السجدة:١٠]، يعني نزّلوا حالهم إذا انتهت لحومهم وعظامهم في الأرض منزلة مَن نسي وتفرق بحيث لم يعد شيئًا مذكورًا.

والضلال نسيان، فأطلق علىٰ مَن خالف الحق عن غير علم ضالًّا لأنه في مقام من تركه نسيانًا له وإعراضًا عنه مع عدم علمه به، وهذا ظاهر في الصلة بين المعنىٰ اللغوي والمعنىٰ الشرعي.

ووصف سبحانه النصارىٰ بـ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأنهم تعبدوا بعبادات علىٰ جهالة فضلوا، وهم ليسوا من الذين تعمدوا ذلك، وقد أوضح الله جل وعلا هذا في سورة الحديد بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وهذا فيه التحذير من سبيلين وقعا في هذه الأمة:

السبيل الأول: سبيل مَن شابه اليهود.

السبيل الثاني: سبيل مَن شابه النصارىٰ.

والناس الذين يتلون الفاتحة في هذه الأمة إما علماء وإما متعبدون: إما علماء فعلا أو علىٰ حكم العلماء كطلبة العلم، أو المنتسبين، أو نحو ذلك، وإما متعبدون ليسوا بعلماء ولا بمنتسبين إلىٰ العلم.

فهذان الصنفان في الأمة ممن يتلو هذه الفاتحة ويحافظ عليها في صلاته ويتلوها، والله جل وعلا بعد أن ذكر الصراط ذكر وصفه باعتبار السالكين، وذكر ما يتميز به هذا الصراط باعتبار الهالكين، وهم الذين علموا فخالفوا العلم – نسأل الله جل وعلا العافية – واتبعوا أهواءهم، والذين تعبدوا الله جل وعلا علىٰ جهل.

وإذا تبين هذا فنرجع إلىٰ آخر ثلاث آيات، قال تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فتلحظ أن هذا الدعاء مع أن الله جل وعلا هو الذي أنزله ليرشد العباد إليه ويبين لهم هذا الطريق فهو جل وعلا ينبّه العباد في دعائهم هذا إلىٰ ما ينبغي أن يكون في قلوبهم؛ لأن الداعي حين يدعو يستحضر ما يدعو به، فحين يقول: اهدنا الصراط المستقيم، يسأل الله الهداية بهذا الصراط، هو يتكلم أيضا بوصف هذا الصراط، يخاطب ربه بذلك بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦﴾ معنىٰ ذلك أنه راغب في سلوك صراط المنعم عليهم، أيضا يقول: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يعني أنه غير راغب ولا محبّذ ولو بقريب، ولا يرغب؛ بل يستعيذ بالله من صراط الذين خالفوا عن علم، وصراط الذين تعبدوا علىٰ جهالة، فترىٰ أن هذه الدعاء أعطىٰ الهداية للقلب من جميع جهاته، بحيث إن العبد لو تأمله علىٰ حقيقته لاستغلقت عليه مداخل الشيطان.

إن إضافة الصراط إلىٰ مَن سلكه تعني أنه يقوم بقلب القارئ أنه مع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وهم أهل طاعة الله وطاعة رسوله وأهل تقواه، ثم يقوم بقلبه البغض وعدم الرغبة وكراهة صراط الذين علموا فخالفوا العلم، والذين تعبدوا علىٰ جهالة.. وهؤلاء الأصناف كثروا في هذه الأمة جدًّا ؛ أعني الذين تعبدوا علىٰ جهالة، والذين علموا فتركوا العلم في العقائد وفي العبادات وفي الفقه وفي السلوك.. إلىٰ آخره، وكذلك الذين تعبدوا علىٰ غير بصيرة.

يُشرع لمن أتم الفاتحة إذا كان في صلاة أن يقول بعدها: (آمين). وهذا اسم فعل بمعنىٰ: استجِبْ، وقد تكون ممدودة: آمين، وقد تكون مقصورة: أمين، وكلاهما لغة، وهي صحيحة، وهي ليست من الفاتحة وإنما دعاء.

والمؤمِّن أحد الداعيينِ، يعني إذا تلا الإمام الفاتحة ودعا بهذه الدعوات فقال المؤمن بعده: آمين، فكأنه شركه في الدعاء، يعني كأن الإمام قال هذا الدعاء من أوله إلىٰ آخره لنفسه ومن معه، دليل ذلك قوله تعالىٰ في سورة يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]، من الذي دعا؟ موسىٰ عليه السلام، قال جل وعلا في الآية التي بعدها: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس:٨٩]، والداعي موسىٰ. قال المفسرون: لأن هارون أمَّن فقال: آمين بعد دعاء موسىٰ، والمؤمِّن أحد الداعيَيْن، كأنه دعا الدعاء بمفرده له ولأخيه.

ولهذا يُحرَم هذا الخير العظيم مَن لا يؤمِّن في الصلاة.

بهذا ينتهي تفسير هٰذه السورة، وقد أطلنا فيها بعض الشيء لأهميتها ولافتتاح هٰذه الدروس، وأما بقية التفسير قد لا تكون علىٰ هٰذا النحو.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.